أثر المصاحبة اللفظية في دلالة الجذر (ف س د) في القرآن الكريم

الدكتور

محمد موسى السعيد جباره

الأستاذ المساعد بقسم أصول اللغة
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالديدامون ـ شرقية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الأطهار الأخيار، ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد.....

فكتاب الله – عز وجل – لا تنقضي عجائبه مهما نهل منه الناهلون، ولا زالت ألفاظه في المرتبة الأولى لدى الدارسين للغة العربية وفقهها، ولا عجب فهي (لُبُّ كلامِ العربِ وزُبْدَتُه، وعليها اعتمادُ الفقهاءِ والحكماءِ في أحكامهم وحِكَمِهم، وإليها مَفْزَعُ حُذّاقِ الشُّعراء والبُلَغاء في نَظْمهم ونَثْرهم، وما عَدَاها وعَدَا الألفاظَ المتفرعاتِ عنها والمشتقاتِ منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنَّوى بالإضافة إلى أطايب الثَّمرة، وكالحُثالة والتِّبْنِ بالإضافة إلى لُبُوبِ الحِنْطة)([1])؛ لذا كانت أمنية كل دارس أن يوفقه الله – عزّ وجلّ – إلى موضوع متعلق بالقرآن الكريم، وكان من فضل الله عَلَيَّ أنّني جلست مع أحد الفضلاء([2]) جلسة مباركة في المسجد النبوي الشريف، وبينما نحن نتحدث سويًّا إذ بنا ندلف لحديث القرآن الكريم عن الفساد والصلاح، وكانت تلك الجلسةُ بذرةً للتفكير في دراسة هذا الموضوع، الذي زكّاه وشجعني عليه – عندما علم بذلك – أستاذي الأستاذ الدكتور محمد حسن جبل، فازدادت الرغبة في دراسته؛ أولاً: لاتصاله بالقرآن الكريم، وثانيًا: لبيان أثر المصاحبة اللفظية في دلالة مشتقات الجذر (ف س د) في القرآن الكريم، وثالثًا: للوقوف على حقيقة معنى الفساد، وبيان ما أصابه أصحاب كتب (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) من صواب في بيان معنى الفساد، وما توسعوا فيه، ورابعًا: للوقوف على الألفاظ التي وقعت

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ص٤ – الناشر مكتبة نزار مصطفى الباز.

(٢) هو أخي الحبيب: الأستاذ الدكتور/ أحمد محمد سعيد، أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر، فرع دمنهور.

المصاحبة بينها وبين مشتقات الجذر (ف س د) في القرآن الكريم، وخامسًا: للوقوف على حقيقة المفسدين ومآلهم، كي نحذرهم ونُحَذِّر منهم.

وبدأتُ بحصر الآيات التي تحدثتْ عن الفساد والإفساد، وصنفتها حسب ما صاحب الفساد أو الإفساد من ألفاظ أخرى، لبيان سِرّ هذه المصاحبة، وقدّمْتُ لبعض المطالب ببيان المعنى اللغوي للفظ المُصَاحِب للفساد أو الإفساد، وذلك بالرجوع إلى أمهات المعاجم اللغوية، وكان منهجي استقرائيًّا تحليليًّا.

أما عن الخطة فقد جاء البحث في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة وفهرسين أحدهما للمصادر والمراجع والثاني للموضوعات.

وفي المقدمة ذكرت أسباب اختيار الموضوع وخطة البحث، والدراسات السابقة.

وفي المبحث الأول تحدثت عن تعريف المصاحبة اللفظية في اللغة والاصطلاح، وبَيَّنْتُ أهميتها وصورها.

وفي المبحث الثاني تحدثت عن المعنى اللغوي للجذر (ف س د) عند علماء اللغة والاصطلاح.

وفي المبحث الثالث كان الحديث عن معاني الجذر (ف س د) عند أصحاب كتب (الوجوه والنظائر).

وخصصت المبحث الرابع للحديث عن مُصاحِبات الجذر (ف س د) في القرآن الكريم، وجاء في ثمانية عشر مطلبًا.

بعده كانت الخاتمة وفيها أهم النتائج، ثم فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وتجدر الإشارة – هنا – إلى أنّ دراسة المصاحبة اللغوية في القرآن الكريم، سبقني إليها الباحث/ حمادة محمد عبد الفتاح الحسيني، وذلك في أطروحته لنيل درجة (العالمية) " الدكتوراه " في أصول اللغة تحت عنوان: (المصاحبة

اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية) – جامعة الأزهر ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

لكن الباحث لم يعرض للحديث عن الجذر (ف س د) – موضوع بحثي – إلا في موطن واحد فقط، وذلك عند حديثه عن المصاحبة بين لفظ: (سبيل) وما أضيف إليه من الألفاظ الأخرى في القرآن الكريم، والتي منها لفظ: المفسدين، وجاء حديثه عنها في صفحة واحدة تقريبًا.(١)

كما أن بعض الباحثين تناول بعض الجذور القرآنية بالدراسة الدلالية، من ذلك:

- الدلالات السياقية لمادة (ك ت ب) في القرآن الكريم، للدكتور/ حسن محمد عبد المقصود – ط – مكتبة الآداب ٢٠٠٤م.
- الدلالات السياقية للجذر اللغوي (ق ت ل) في النص القرآني، للدكتور/ حسن محمد عبد المقصود، شارك به في المؤتمر الدولي الثالث بكلية دار العلوم – جامعة المنيا، تحت عنوان: العلوم الإسلامية والعربية وقضايا الإعجاز في القرآن والسنة بين التراث والمعاصرة، في الفترة ٤–٦مارس ٢٠٠٧م.
- ألفاظ الغفران في القرآن الكريم دراسة لغوية، رسالة تقدَّمت بها الطالبة/ سحر ناجي فاضل المشهدي، إلى مجلس كلية التربية للبنات في جامعة الكوفة، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، عام ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
- أفعال الحركة الانتقاليّة الكليّة للإنسان في القرآن الكريم دراسة دلاليّة إحصائية، للباحث/ عماد عبد الرحمن خليل شلبي، قُدّمت هذه

(١) ينظر: المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية، للباحث حمادة محمد عبد الفتاح الحسيني ص٣٤٧، ٣٤٨ (رسالة دكتوراه/ جامعة الأزهر ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م).

الأطروحة استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، عام٢٠١٠م.

- ألفاظ النصر والتمكين في القرآن الكريم دراسة دلالية، للدكتور/ عبد الوهاب محمد علي العدواني، وعماد عبد يحيى، مجلة آداب الرافدين، العدد: ٢٣.

وهذه الموضوعات الخمسة الأخيرة دَرَسَ أصحابُها جذورًا قرآنيةً دراسة دلالية عامة، وليست مختصة بأثر المصاحبة اللفظية في دلالة هذه الجذور.

وأسأل الله – عزّ وجلّ – أن أكون وُفقتُ فيما قصدتُ، وأن يغفر لي ما وقعتُ فيه من تقصيرٍ أو زَلَلٍ، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

تعريف المصاحبة اللفظية، وأهميتها، وصورها

أولاً: تعريف المصاحبة في اللغة والاصطلاح:

المصاحبة في اللغة:

يدل الجذر (ص ح ب) على الملاءمة والموافقة والملازَمَة، قال الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ): (وكلُّ شيء لاءَمَ شيئًا فقد استصحبه)([1])، يقال: أَصْحَبَ الماءُ: إذا علاه الطُّحْلُب، وإهابٌ مُصْحَبٌ، وقد أَصْحَبْتُه: إذا تركت عليه صوفه ولم تَعْطِنْه([2])، وأَصْحَبَ الرجلُ: بلغ ابنُه مبلغ الرجال، فصار مثلَه، فكأنه صاحِبُه.([3])١٦/١٠٥

---

(١) العين، للخليل بن أحمد ١٢٤/٣ (ص ح ب) تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي– ط – الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م – مؤسسة الأعلمي – بيروت – لبنان، وينظر: المحيط في اللغة، للصاحب بن عباد ٤٦٧/٢ تحقيق محمد حسن آل ياسين – ط – الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م – عالم الكتب – بيروت. (والنصّ هناك: (لَأَمَ) بدلاً من: لاءَمَ)، مقاييس اللغة، لابن فارس ٣٣٥/٣ (ص ح ب) تحقيق عبد السلام هارون – ط – دار الجيل – بيروت، تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري ١٦٢/١ تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – ط – الرابعة ١٩٩٠م – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان، لسان العرب، لابن منظور ٢٤٠١/٤ (ص ح ب) – ط – دار المعارف – مصر. والنص في اللسان: (وكل ما لازَمَ) بدلاً من: (لاءَمَ).

(٢) ينظر: إصلاح المنطق، لابن السكيت ٢٤٩ تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون – ط– دار المعارف – مصر، وينظر: الصحاح ١٦٢/١، اللسان ٢٤٠١/٤ (ص ح ب).

(٣) اللسان ٢٤٠١/٤، مقاييس اللغة ٣٣٥/٣، الصحاح ١٦٢/١ (ص ح ب).

وتجدر الإشارة – هنا – إلى أن ابن فارس (ت٣٩٥هـ) ذهب إلى أن (الصاد والحاء والباء أصل واحد يدلّ على مقارنة شيء ومقاربته)([1]).

وذهب الدكتور محمد حسن جبل إلى أن المعنى المحوري للجذر (ص ح ب) هو: (لزوق الشيء بكثافة أو قوة على ظاهر أصله، أي: ملازمته إياه، كالطُّحْلُب للماء ... فالأصل في الصحبة هو الملازمة – حسب ما يؤخذ من الاستعمالات المادية، ثم قد تستعمل في مجرد الاقتران).([2])

المصاحبة اللفظية في الاصطلاح:

هي: (الارتباط الاعتيادي لكلمةٍ ما في لغةٍ ما بكلماتٍ أخرى معينة).([3])

أو هي: الورود المتوقع أو المعتاد لكلمةٍ ما مع ما يناسبها أو يتلاءم معها من الكلمات الأخرى في سياق لغويٍّ ما.

مثل: البقرة مع اللبن، والليل مع الظُّلْمة، فإنّ جزءًا من معنى الليل يكمن في إمكانية وروده مع لفظ: الظُّلْمة، وجزءًا من معنى الظُّلْمة يكمن في إمكانية وروده مع لفظ: الليل.([4])

ويلاحظ أنّ التعريفين متقاربان.

ثانيًا: أهمية المصاحبة:

---

(١) مقاييس اللغة ٣٣٥/٣ (ص ح ب).

(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن جبل ١١٩٧/٣ (صحب) – ط – الأولى ٢٠١٠م – الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة.

(٣) هذا تعريف أولمان، كما في: علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر ص٧٤ – ط – الخامسة ١٩٩٨م – عالم الكتب – القاهرة. وتجدر الإشارة إلى أنه ترجم المصطلح (Collocations) بالرصف أو النظم.

(٤) ينظر: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، د. عبد الفتاح عبد العليم البركاوي ص٥٢ – ط – الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م – الناشر دار المنار بالقاهرة.

لا شك أن لهذا الارتباط بين الكلمتين أثرًا في وضوح المعنى ودقته؛ لذا ذهب فيرث إلى أن المصاحبة جزء من معنى الكلمة؛ وكان يرى أن الإنسان يمكنه معرفة معنى الكلمة عن طريق ما يصاحبها([1])، ففي المصاحبة اللفظية يكون الاهتمام بالسياق اللغوي، أي مجموع الكلمات التي تَرِدُ معها الكلمة موضوع الدراسة.([2])

فالمصاحبة اللفظية تتضح أهميتها في تحديد المعنى المعجمي المراد؛ لأنها توقفنا على التجمعات التي ترد فيها الألفاظ، أو – بعبارة أخرى – معرفة السياقات اللغوية التي يحتمل استخدامها فيها، ويشبه ذلك إلى حَدٍّ كبيرٍ ما يُعرف عند المفسرين باسم: الوجوه (الأشباه) والنظائر في القرآن الكريم، حيث يُستعمل اللفظ الواحد في سياقات عديدة بمعان مختلفة.([3])

كما دعا برزغ إلى الإقرار بأهمية العلاقات التلاؤمية بين الألفاظ، مثل: يعض وأسنان.([4])

لكن الكلمات تنقسم من حيث درجة قابليتها للمصاحبة بين بعضها البعض إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ذلك الذي يفرض قيودًا مشددة على الكلمة التي يقترن بها، نحو: أشقر، فإننا نقول: البنت شقراء، ولا نقول: الفستان أشقر، ولا الولد أشقر.

النوع الثاني: كلمات متوسطة المدى، وهي التي تقبل الاقتران أو المصاحبة مع عدد أكبر من كلمات النوع السابق، وذلك مثل كلمة: مات، حيث

---

(١) علم الدلالة، بالمر ٨٧، ترجمة مجيد الماشطة – ط – الجامعة المستنصرية – بغداد ١٩٨٥م.

(٢) ينظر: علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر ص٧٥.

(٣) ينظر: دلالة السياق، د. البركاوي ص٥٣.

(٤) السابق نفسه ٨٧.

تقبل المصاحبة مع إنسان، ونبات، وحيوان، ولكن لا تقبلها مع الجمادات، فلا نقول: مات المنزل مثلاً.

النوع الثالث: كلمات طويلة المدى، وهي التي تقبل المصاحبة مع كلمات ترجع إلى حقول مختلفة، نحو: ضرب، ضرب الولد، ضرب الخيمة، ضرب أصابعه.(١)

لذا يذهب بالمر إلى أن الاقتران يكون – أحيانًا – خصوصيًّا ويصعب التنبؤ به بواسطة معاني الكلمات المرتبطة بعضها ببعض، مثل: أشقر وشعر، إذ لا نستطيع أن نقول: باب أشقر، أو بدلة شقراء، حتى إن كان اللون تمامًا لون الشعر الأشقر... وقد تكون للكلمات معان أكثر تخصصًا في اقترانات خاصة، فنحن نستطيع أن نتحدث عن جو استثنائي أو غير طبيعي إذا كانت هناك موجة حَرٍّ، غير أن الطفل الاستثنائي ليس طفلاً غير طبيعي؛ إذ إن " استثنائي " تستعمل لقابلية أعظم من القابلية الاعتيادية.(٢)

ثالثًا: صور المصاحبة وأشكالها:

للمصاحبة عدة صور تأتي عليها، منها:(٣)

١–الصفة والموصوف، مثل: القوى العاملة، والحرب الباردة.

٢–المضاف والمضاف إليه، مثل: صديق السوء، أهل الذكر.

٣–المعطوف والمعطوف عليه، مثل: السماء والأرض، يحيي ويميت.

---

(١) ينظر: الدلالة والنحو، صلاح الدين صالح حسنين ص٨٢ – ط – الأولى – توزيع مكتبة الآداب.

(٢) ينظر: علم الدلالة، بالمر ٨٨.

(٣) ينظر: المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية، للباحث حمادة محمد عبد الفتاح الحسيني ص٨٨ (رسالة دكتوراه/ جامعة الأزهر ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م)، نقلاً عن: المصاحبة في التعبير اللغوي للدكتور محمد حسن عبد العزيز ص٨٨.

٤-الفعل والفاعل، مثل: نبح الكلب، ماءت القطة.

٥-الفعل والمفعول، مثل: تشن سلطات الاحتلال حملة اعتقالات.

٦-الفعل ومتعلقه، مثل: يمشي على استحياء.

وقد ذكر د/ محمد حسن عبد العزيز أشكالاً للتلازم بين المفردات في الأنماط الرئيسة الآتية:([1])

١-العكوس (ومن بينها التضاد)، نحو: الشرق والغرب، والكثير والقليل، والأعمى والبصير، والغنى والفقير.

٢-المترادفات، أو الألفاظ المتقاربة في الدلالة، نحو: المستقر والمقام، والبث والحزن، يحفظ ويرعى.

٣-المتكاملات، نحو: السماء والأرض، الحيوان والنبات، الحديد والنار، الحاضر والمستقبل، والورقة والقلم .. إلخ.

(١) ينظر: السابق نفسه. ص٨٨.

المبحث الثاني

معنى الجذر (ف س د) عند اللغويين وعلماء الاصطلاح

بالرجوع إلى معاجم اللغة نجد أن معظمها شرح الفساد بضده، حيث عَبّر بعضهم عنه بأنه: نقيض الصّلاح(١)، وعَبّر عنه آخرون بأنه: ضدّ الصّلاح(٢)، وعَبّر عنه فريق ثالث بقولهم: والمفسدة: خلاف المَصْلحة.(٣)

والعبارات الثلاثة – كما هو واضح – بمعنى واحد؛ إذْ فَسَّرتِ الفسادَ وشرحته بضده، وهو شرح لا يُفيدنا كثيرًا في الوقوف على حقيقته ومعناه بدقة.

لكن ليس معنى ذلك أن اللغويين جميعًا تركوا اللفظ دون بيان حقيقته ومعناه، فأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) يعرف الفساد بأنه: (التَّغيير عن المقدار الذي تدعو إليه الحكمة).(٤)

---

(١) ينظر: العين ٢٣١/٧، تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري ٣٦٩/١٢ تحقيق/ عبد السلام هارون وآخرين – ط – الدار المصرية للتأليف والترجمة، المحيط في اللغة ٢٨٨/٨، المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده ٤٥٨/٨ تحقيق د. عبد الحميد هنداوي – ط – الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، لسان العرب ٣٤١٢/٥ (ف س د).

(٢) ينظر: جمهرة اللغة، لابن دريد ٦٤٦/٢ تحقيق د. رمزي منير بعلبكي – ط – الأولى ١٩٨٧م – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان، القاموس المحيط، للفيروزابادي ٣٢٠/١ – ط – الهيئة المصرية العامة للكتاب (نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ)، تاج العروس، للزَّبيدي ٤٩٦/٨ (ف س د) تحقيق/ عبد الستار أحمد فراج، وآخرين – ط – ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م – الكويت.

(٣) الصحاح، للجوهري ٥١٩/١، المصباح المنير، للفيومي ٤٧٢/٢ (ف س د) تحقيق د. عبد العظيم الشناوي – ط – الثانية – دار المعارف – مصر.

(٤) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري ص٢١٤ تحقيق محمد إبراهيم سليم – الناشر: دار العلم والثقافة بالقاهرة.

ويقول الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ): (الفسادُ: خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروجُ عنه أو كثيرًا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة).(١)

ومعنى ذلك أن الأصل في الأشياء أن تكون معتدلة مستقيمة كي تتصف بالصلاح، فإذا خرج الشيء عن حدّ الاعتدال والاستقامة صار فاسدًا.

ولعل الخروج عن حد الاعتدال في إحدى الحروب قديمًا كان سببًا في تسميتها بحرب الفساد، قال الزَّبيديّ (ت ١٢٠٥هـ) عنها: (وهي حَرْبٌ كانت بين بني شك وغَوْث من طيءٍ، سُمِّيَت بذلك؛ لأَن هؤلاءِ خَصَفُوا نِعَالَهُم بآذان هؤلاءِ، وهؤلاءِ شَرِبُوا الشَّرَابَ بأَقْحافِ هؤلاءِ).(٢)

وعرفه ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) بأنّه: (تغيُّرٌ عما كان عليه من الصّلاح، وقد يُقال في الشيء مع قيام ذاته، ويُقال فيه مع انتقاضها، ويُقال فيه: إذا بَطَلَ وزال، ويُذْكر الفساد في الدّين كما يُذْكر في الذّات، فتارة يكون بالعصيان، وتارة بالكفر).(٣)

وعلى ذلك فالفساد – عند ابن الجوزي – معناه: تغيُّرُ الشيءِ عما كان عليه من الصّلاح، وهو قريب مما ذكره أبو هلال العسكري، وإذا قارنّا هذا الكلام بما وَرَدَ سابقًا عن الراغب، فإنه يمكننا القول بأن بينهما رابطًا؛ لأن الشيء إذا خَرَجَ عن حدّ الاعتدال – الذي هو في حدّ ذاته صلاح، ومقدارٌ تدعو إليه الحكمةُ– تَغَيَّرَ.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص٤٩١ (ف س د).
(٢) تاج العروس ٤٩٨/٨ (ف س د)
(٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لجمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ص٤٦٩ تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي – ط – الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م – الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان.

لكن يلاحظ أنّ ابن الجوزي ذكر أنّ معنى التغيّر قد يتحقق في الشيء الذي أصابه الفساد مع وجود ذاته، ولعله يمكننا التمثيل لذلك بما وَرَدَ في (المعجم الوسيط): (فَسَدَ اللَّبَنُ أو اللَّحْمُ أو نحوُهُما يَفْسُدُ فَسَادًا: أَنْتَنَ أو عَطِبَ)(١)، إذ إنّ ذاته – حينئذٍ – تكون قائمة، أي أن الصورة العامة له موجودة، لكنه غير صالح لأنْ يتناوله الإنسان؛ بسبب ما حدث من تغير في حقيقته وصورته الجزئية، من تغيرٍ في الطعم والرائحة، واللون أحيانًا، كما ذكر ابن الجوزي أن الفساد قد يتحقق في الشيء مع انتقاض ذاته، ولعله يمكننا أن نمثّل لذلك بهدم البيت، حيث تتغيّر صورته، ولم يعد صالحًا للسُّكْنَى، أما قوله بأن الفساد يقال في الشيء: إذا بطل وزال، فمعنى ذلك أن هذا الشيء الذي أصابه الفساد قد زالت صورته بالكلية، وحينئذٍ لا يمكن الانتفاع به، أو بشيءٍ منه.

ونقل الزَّبيديُّ عن شيخه ما يؤيد ما ذهب إليه ابن الجوزي، حيث قال: (وقد اخْتَلَفت عباراتُهم في معناه، فقيل: فَسَد الشيءُ: بَطَلَ واضْمَحَلّ ويكون بمعنَى تَغَيَّرَ ومن الأَول عند الأَكثَر " لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا "... والفَسَادُ: أَخْذُ المالِ ظُلْمًا بغير حَقٍّ، هكذا فَسَّر مُسْلِمٌ البطينُ قوله تعالى: " للَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأَرضِ ولا فَسادًا ").(٢)

وبالمعنى الثالث من المعاني التي ذكرها ابن الجوزي (أي: زوال الصورة بالكلية) عرّفه الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ) فقال: (زوال الصورة عن المادة

(١) المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ص٦٨٨ (ف س د) – ط – الرابعة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م – مكتبة الشروق الدولية.

(٢) تاج العروس ٤٩٦/٨، ٤٩٧ (ف س د)، وفي القاموس المحيط ٣٢٠/١ (ف س د): (والفساد: أخذ المال ظلمًا).

بعد أن كانت حاصلة)(١)، ومثله قول عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ): (الفساد: انتقاض صورة الشيء).(٢)

أما قول الزَّبيديّ: والفَسَادُ: أَخْذُ المالِ ظُلْمًا بغير حَقٍّ، فلعله من الصورة الأولي التي ذكرها ابن الجوزي، وهي: تغيُّر الشيء مع قيام ذاته، فالفساد –هنا – يتمثل في أخذ المال بغير حقّ، وليس في أخذ المال في حدّ ذاته، إذ أخذه بغير حقّ (ظلمًا) هو الذي يتحقق فيه تغيير الصورة التي ينبغي أن يؤخذ المال عليها، لكن ذات الشيء – هنا – قائمة.

وكذلك تعريف التهانَوي (ت بعد ١١٥٨هـ) حيث قال: (والفاسد لغة: ذاهب الرونق، وشرعًا: ما وجد أركانه وشروطه دون أوصافه الخارجية المعتبرة شرعًا، كبيع بخمر، وصلاة بلا فاتحة).(٣)، فالبيعُ بخمرٍ، أَخَذَ – من حيث الشكل – الصورةَ العامّةَ للبيع، والصلاةُ بلا فاتحةٍ أخذتْ صورةَ الصلاة، لكنهما فقدا حقيقةَ كلٍّ منهما؛ لذا حُكم عليهما بالفساد.

وتجدر الإشارة – هنا – إلى أن قول التهانوي – في التعريف السابق –: ما وجد أركانه وشروطه، لعله يقصد الصورة العامة، لا الشروط والأركان التي ذكرها الفقهاء في كتبهم، فالفاتحة – كما هو معلوم – ركن من أركان الصلاة؛ لذا تفسد بتركه.

---

(١) التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني ص٢١٤ تحقيق إبراهيم الإبياري – ط – دار الريان للتراث.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، لعبد الرؤوف المناوي، ص٥٥٥ تحقيق د. محمد رضوان الداية – ط – الأولى ١٤١٠هـ – الناشر: دار الفكر المعاصر – دار الفكر – بيروت، دمشق.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي ١٢٧١/٢ تحقيق د. علي دحروج – ط – الأولى ١٩٩٦م – مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – لبنان.

ومما جاء على الصورة الأولى من الصور الثلاث التي ذكرها ابن الجوزيّ ما وَرَدَ في (المعجم الوسيط) من أنّ الفساد يأتي بمعنى: التّلَف والعَطَب، والاضطراب والخلل، والجَدْب والقَحْط، وإلحاق الضّرر(١)، فهذه الأشياءُ تُحدث تغييرًا في الشيء لكن مع بقاء ذاته.

أما ما ذهب إليه ابن الجوزي من أن الفساد يُذْكر في الدِّين كما يُذْكر في الذات، فتارة يكون بالعصيان، وتارة بالكفر. فأقول: إنّ ذِكْرَ الفساد في الدِّين من باب التطور الدلالي.

ووَرَدَ في المعاجم: وفَسَّدَه تَفْسِيدًا: أَفْسَدَهُ وأَبارَهُ، قال أبو جُنْدَبٍ الهُذَليُّ:

وقلتُ لَهُمْ: قدْ أَدْرَكَتْكُمْ كَتِيبَةٌ مُفْسِّدَةُ الأَدبارِ ما لمْ تُخَفَّرِ

أَي: إذا شَدَّتْ على قَومٍ قَطَعَتْ أَدْبَارَهم، ما لم تُخَفَّرِ الأَدْبَارُ أَي: ما لم تُمْنَع.(٢)

فهنا نجد المعجميين قرنوا الإفساد بالإهلاك، فَأَبارَه بمعنى: أهلكه(٣)، والصلة بين الإفساد والإهلاك قوية، إذ الإفساد إهلاكٌ للشيء، وإهلاكُ الشيء إفسادٌ له، أي: تغيير لحالته الأصلية التي كان عليها، بحيث لا يصلح للانتفاع به.

وبقي من معاني الفساد الواردة في المعاجم، قولهم: وتفاسَدُوا: قَطَعُوا الأَرْحَامَ وتَدَابَرُوا، قال الشاعر:

(١) المعجم الوسيط ص٦٨٨ (ف س د).
(٢) ينظر: تهذيب اللغة ٣٧٠/١٢، المحكم ٤٥٨/٨، اللسان ٣٤١٢/٥، تاج العروس ٤٩٧/٨ (ف س د).
(٣) يقال: بارَ فلانٌ أَي: هلك، وأَباره الله: أَهلكه، والبُورُ: الأَرض التي لم تُزْرَع. ينظر: الصحاح ٥٩٧/٢، اللسان ٣٨٥/١ (ب و ر).

يَمْدُدْنَ بالثُّدِيِّ في المَجَاسِدِ إلى الرِّجَالِ خَشْيَةَ التَّقَاسُدِ

يقول: يُخْرِجْنَ ثُدِيَّهُنَّ يَقُلْن: نَنْشُدُكُم الله إلاَّ حَمَيْتُمُونَا، يُحَرِّضْنَ بذلك الرِّجالَ.(١)

وقَطْع الأرحام والتدابر فساد؛ لأنه تغيير للأصل الذي يجب أن تكون عليه العلاقة بين ذَوِي الرَّحم، قال تعالى: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) [محمد: ٢٢].

وذهب الدكتور محمد حسن جبل إلى أن المعنى المحوري للجذر (ف س د) هو: (ذهاب نفع الشيء المقصود منه، (أي: تلفه وهلاكه) لحدَّة ضارّة تسري في أثنائه)(٢)، وهذا يتفق مع ما ذُكر من قَبْلُ، لأن ذهاب نفع الشيء يكون بسبب تغيُّرٍ طرأ عليه فلم يَعُدْ صالحًا، وصار فاسدًا.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) اكتفي بذكر بعض مشتقات هذا الجذر، ولم يذكر معنى محوريًّا له، فقال: (الفاء والسين والدال كلمةٌ واحدة، فَسَدَ الشَّيءُ يَفْسُد فسادًا وفُسودًا، وهو فاسِدٌ وفَسِيد)(٣)، وكأنه يقول: إن معناه واضح لا يحتاج إلى شرح أو بيان.

(١) ينظر: المحكم ٤٥٨/٨، اللسان ٣٤١٢/٥، القاموس المحيط ٣٢٠/١، تاج العروس ٤٩٧/٨ (ف س د)، والمَجَاسِد: جمعُ المجْسَد، وهو القَميصُ الذي يلي البَدنَ، والمجَاسِدُ: جمع مِجْسَدٍ، وهو القميص المُشْبَعُ بالزعفران. تهذيب اللغة ٥٦٨/١٠ (ج س د).
(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل ١٦٧٢/٣ (ف س د).
(٣) مقاييس اللغة ٥٠٣/٤.

المبحث الثالث

معاني الجذر (ف س د) عند أصحاب كتب (الوجوه والنظائر)

ذكر أصحاب كتب (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) سبعة معان وَرَدَ عليها الجذر (ف س د) في القرآن الكريم، وهي:([1])

الأول: المعاصي، ومنه قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) [البقرة:١١]، أي: لا تعملوا فيها المعاصي، ونظيرها قوله تعالى: (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) [الأعراف: ٥٦، ٨٥]، أي: لا تعملوا فيها المعاصي والشرك، ونحوه كثير.

وتجدر الإشارة إلى أن أبا هلال العسكري فسَّر الإفساد في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) [البقرة:١١]، بالمَيْل مع الكفار، وعَلّل هذا

(١) ينظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان البلخي ص٣٠، ٣١ تحقيق د. حاتم صالح الضامن – ط – الأولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م – مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث – دبي، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، عن هارون بن موسى ص٤٠، ٤١ تحقيق د. حاتم صالح الضامن – ط- ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م – سلسلة خزانة دار صدام للمخطوطات – وزارة الثقافة والإعلام – دائرة الآثار والتراث، التصاريف، تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام ص١٨٠، ١٨١ تحقيق هند شلبي – ط – مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي – عمّان – الأردن ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، الوجوه والنظائر، لأبي هلال العسكري ص٣٦٣، ٣٦٤ تحقيق محمد عثمان – ط – الأولى ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م – الناشر مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، وجوه القرآن، لأبي عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد النيسابوري ٤٠٥، ٤٠٦ تحقيق فضل الرحمن عبد العليم الأفغاني – رسالة ماجستير (مخطوطة) ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م – جامعة أم القرى – مكة المكرمة، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني ١١٤/٢: ١١٦ تحقيق محمد حسن أبو العزم الزفيتي – ط – ١٤١٦هـ ١٩٩٥م – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة، نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي ص٤٦٩ : ٤٧١.

التفسير بقوله: (وذلك أنّ المنافقين كانوا يمالون الكفار فيجترئون على المسلمين، ويطمعون في النَّيْل منهم، والغلبةِ عليهم، ويُسْرِعون إلى محاربتهم، وفي ذلك الفسادُ في الأرض؛ لأن الحرب مفسدة للمال، ومهلكة للنفس).(١)

الثاني: الهلاك، ومنه قوله تعالى في بني إسرائيل: (لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَين) [الإسراء: ٤]، يعني: لتهلكنّ مرتين، وقوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء: ٢٢]، يعني: لهلكتا، أي: السماوات والأرض، ونظيرها قوله تعالى: (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنّ) [المؤمنون: ٧١]، أي: لهلكت، قال أبو هلال العسكري: (والدليل على أنه أراد الهلاك قوله: "ومَنْ فِيهِنّ").(٢)

الثالث: قَحْطُ المَطَر، وقِلّةُ النبات. ومنه قوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْر) [الروم: ٤١]، في البَرّ: أي: البادية، والبَحْر: أي: العمران والريف.

الرابع: القتل، ومنه قوله تعالى: (أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) [الأعراف: ١٢٧]، أي: ليقتلوا أبناء مصر، وكقوله تعالى: (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَاد) [غافر: ٢٦]، يقول: يقتل أبناءهم، وقولُه تعالى: (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْض) [الكهف: ٩٤]، أي: يقتلون الناس.

لكن أبا هلال العسكري لم يوافق على تفسير الفساد بالقتل، وذهب إلى أنّ معنى الفساد المذكور في آيتي الأعراف والكهف السابقتين هو: ضد الصلاح، والقتل داخل فيه.(٣)

الخامس: الفساد بعينه، وعبر عنه أبو هلال بـ(ضد الصلاح)(٤)، وعبّر عنه ابن الجوزيّ بـ (الخراب)(١)، ومنه قوله تعالى: (لِيُفْسِدَ فِيهَا) [البقرة:

(١) الوجوه والنظائر، لأبي هلال العسكري ص٣٦٣.
(٢) الوجوه والنظائر ص٣٦٣.
(٣) ينظر: الوجوه والنظائر ص٣٦٤.
(٤) ينظر: الوجوه والنظائر، لأبي هلال ٣٦٤.

٢٠٥]، يعني: الفساد بعينه، (وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ) [البقرة: ٢٠٥]، يعني: ما ذُكر في هذه الآية، وقوله تعالى: (إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا) [النمل: ٣٤]، أي: خَرّبوها.

السادس: السحر، كما في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) [يونس: ٨١]، يعني: فِعْل السَّحَرة.

السابع: الكفر(٢)، ومنه قوله تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ) [هود: ١١٦].

تعقيب:

هذه المعاني السبعة التي ذكرها علماء الوجوه والنظائر للجذر (ف س د) في القرآن الكريم ليست حاسمة في بيان معنى الجذر في كتاب الله – عز وجل –؛ والدليل على ذلك:

- أنهم ذكروا أنه يأتي بمعنى المعاصي، مستدلين بقوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ)، وهو معنى عامّ، لذا وجدنا أبا هلال العسكري يفسر الإفساد في الآية المذكورة بمعصية معينة وهي: الميْل مع الكفار.
- في الوجه الثاني فسروا الإفساد في آية الإسراء (لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) بالهلاك، وهو تفسير لا يستقيم مع سياق الآية، وذهب ابن

(١) ينظر: نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزيّ ص٤٧١، لكن يلاحظ أن الذين عبروا عنه بـ (الفساد بعينه) قصدوا: معنى الخراب، بدليل أنهم فسروا قوله تعالى: (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا) [النمل: ٣٤]، بقولهم: أي: خَرّبوها. ينظر: الوجوه والنظائر، لمقاتل بن سليمان ص٣٠، التصاريف ص١٨١، الوجوه والنظائر، لهارون بن موسى ص٤١، الوجوه والنظائر، للدامغاني ١١٥/٢.

(٢) هذا الوجه انفرد به ابن الجوزي، ينظر: نزهة الأعين النواظر ص٤٧١.

جرير الطبري إلى أنّ معناه: (لَتَعْصُنَّ اللهَ يا معشر بني إسرائيل وَلَتُخَالِفُنَّ أَمْرَهُ في بلاده مرّتين)(١)، وذهب القرطبي إلى أن المراد به: (مخالفة أحكام التوراة).(٢)

- في الوجه الثالث فسروا الفساد بأنه: قَحْطُ المَطَر، وقِلّةُ النبات. مستدلين بقوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، وهذا المعنى ذكره البغوي (ت ٥١٠هـ) في تفسيره(٣)، لكنه تخصيص لا داعي له، فقد فسره الطبري بالمعاصي(٤)، وفسره غيره بالمثال، أي ذكروا أمثلة للفساد (كالجدب والمَوَتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الغاصة ومَحْق البركات وكثرة المضارّ)(٥)، ومعنى ذلك أنهم لم يتفقوا على تفسيره بالمعنى الوارد في كتب الوجوه والنظائر.

- أما تفسير الفساد بالقتل – كما ورد في الوجه الرابع – فسياق آيتي الأعراف وغافر (أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ)، (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)، اللتين استشهدوا بهما لا يؤيد هذا التفسير، وتخصيصه في آية الكهف (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) لا داعي له، لأن السياق يحتمل أنواع الفساد المختلفة، ويكفينا ما سبق ذكره من أنّ أبا هلال العسكري فسّر الفساد في آيتي الأعراف والكهف بأنه ضد الصلاح.

---

(١) جامع البيان ١٧/ ٣٥٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٢١٤.
(٣) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي ٢٧٤/٦ تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرين – ط – الرابعة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م – الناشر دار طيبة.
(٤) ينظر: جامع البيان ١٠٧/٢٠.
(٥) أنوار التنزيل ٢/ ٢٢٢، إرشاد العقل السليم ٧/ ٦٢، روح المعاني ٢١/ ٤٧.

- قولـه تعـالى: (إِنَّ اللَّـهَ لَا يُصْـلِحُ عَمَـلَ الْمُفْسِـدِين) قاعـدة عامـة، ولا يقتصر على السحر دون غيره من أنواع الإفساد في الأرض.
- أما قوله تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ) فالنهي عن الفساد في الأرض واجب أيًّا كان هذا الفساد، كُفْرًا كان أو قَتْلاً، أو إهلاكًا للحرث، أو غير ذلك، وليس مختصًّا بالكُفْر دون غيره من أنواع الفساد.
- في الوجه الخامس وَرَدَ تفسير الفساد بالخراب، وهو أقرب الوجوه المذكورة إلى المعنى اللغوي الذي سبق ذكره؛ لذا عبر عنه بعضهم بقوله: ضد الصلاح.

رأي الحكيم الترمذيّ (ت بعد ٣١٨هـ) في قضية الوجوه والنظائر في القرآن الكريم:

تجدر الإشارة – هنا – إلى رأي الحكيم الترمذيّ في هذه القضية لاتصاله بموضوعنا الذي نحن بصدده.

يرى الحكيمُ الترمذيُّ أن اللفظ يمكن أن يكون له أكثر من معنى، لكن هذه المعاني ترجع جميعًا إلى معنًى واحد تفرعت منه، يقول – في مقدمة كتابه – موضِّحًا وجهة نظره: (فإنا نظرنا في هذا الكتاب المؤلف في نظائر القرآن(١)، فوجدنا الكلمةَ الواحدةَ مفسرةً على وجوه، فتدبَّرْنا ذلك، فإذا التفسيرُ الذي فَسَّرَهُ إنما اختلفت الألفاظ في تفسيره، ومرجع ذلك إلى كلمة واحدة)(٢).

(١) يبدو من هذه العبارة أنه اطلع على أحد الكتب المؤلفة في الوجوه والنظائر.
(٢) تحصيل نظائر القرآن، للحكيم الترمذي ص١٩ تحقيق وضبط/ حسني نصر زيدان – ط – الأولى ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م – مطبعة السعادة بالقاهرة.

ومن الكلمات التي تناولها في كتابه كلمة (الفساد) التي قال عنها: (وأما قوله: "الفساد على كذا وجه"، فالفساد: هو انتقاضُ الشيء الذي أصلحه الله، العالمُ بحسن تقديره وتدبيره، فإذا انتقضَ ذلك: تَفَرّقَ ما اجتمع، وانْتَكس ما عَلا، وأظْلم ما استنار، وتأخّر ما تقدّم، وخَلا ما احْتشى، ووَهَى ما اسْتقام، وخَمَدَ ما اهْتَزّ، وذَلّ ما عَزّ، واسْتكان ما بَرَزَ).([1])

فهذا هو معنى الفساد عند الحكيم الترمذي، وهو عنده المعنى الأصلي الذي انشعبت منه المعاني الأخرى؛ لذا نجده يربط – بعد هذا النص – بين هذا المعنى الأصلي والمعاني الأخرى، فيقول عن تفسير الفساد – في أحد الأوجه التي ورد عليها – بأعمال المعصية: (وإنما صار الفساد "أعمال المعصية"؛ لأن الأرض إنما تُقِلّ الآدميين، وتُربّي معايشهم بما ينزل من البركة، وإنما تنزل البركة بترك الفساد، فإذا ظهرت أعمالُ المعصية، امتنعت البركةُ، فإذا امتنعت البركةُ، ضعفت الأرضُ، وخافت من ربها، فاشتدّ عليها تربية معايش الآدميين؛ لأن تلك الأشياءَ تكون منزوعةَ البركةِ، فإذا نُزعت البركةُ لم يجدْ أهلُها سبيلاً أن يصرفها في طاعة الله، فازدادت المعاصي، فالبركةُ في انتقاصٍ، والمعاصي في ازدياد، حتى تجأر الأرض إلى الله من ثقل تراكم المعاصي؛ فلذلك سُمِّي: فسادًا؛ لأن الأرض وما عليها ومَنْ عليها، تكون كما وصفنا بديّا).([2])

من النصّ السابق تتضح لنا وجهة نظر الحكيم الترمذي، وهي – على وجه العموم – فكرة جيدة، لكن طريقة المعالجة لنا عليها ملاحظة مهمة، حيث انطلقت في بدايتها من معنًى صحيح وهو: انتقاض الشيء الذي أصلحه الله، لكنه لم يستمرّ على ذلك، حيث ربط الوجوه التي ذكرها علماء الوجوه والنظائر

(١) السابق نفسه ص٣١.
(٢) السابق نفسه ص٣١، ٣٢.

بأشياء من خارج اللغة، وكان ينبغي أن يعلل لنا تفسير الفساد بأعمال المعصية، أو غيرها من المعاني، من خلال المعنى اللغوي للفساد.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الحكيم الترمذي تناول ثلاثة وجوه (معان) أخرى للفساد، لكنه كان يُحيل – في إرجاعها إلى الأصل الذي انشعبت عنه – إلى ما قاله سابقًا عند حديثه عن "أعمال المعصية"، فنراه يقول عن تفسير الفساد "بفساد التدبير": (وإنما صار الفساد "فساد التدبير" لما ذكرنا بديّا)، ويقول عن تفسير الفساد "بنقص الثمرات": (وإنما صار الفساد "نقص الثمرات" في مكان آخر؛ لما قلتُ بديّا: أن ذلك انتقاضُ التدبير)، وقال عن تفسيره "بتغيير الدِّين": (وإنما صار الفساد في مكان آخر "تغيير الدِّين"؛ لأنه إنما تغيّر دينهم من انتقاض تدبيرهم)، ثم ختم حديثه عن كلمة الفساد وما تفرعت إليه من معانٍ بقوله: (فالأصل ما ذكرنا بديًّا، ثم يتشعب في هذه الأحوال).([1])

(١) السابق نفسه ص٣٢.

المبحث الرابع

مُصاحِبات الجذر (ف س د) في القرآن الكريم

المطلب الأول: المصاحبة بين لفظتي: الفساد والأرض

وردت مشتقات الجذر (ف س د) في القرآن الكريم في خمسين موضعًا([1])، ارتبط الفساد – في جميع هذه المواضع على وجه العموم– بالأرض، أي: سواء أكان الارتباط مباشرًا، أم عن طريق عود الضمير، أم بما يفهم صراحة من السياق، وارتبط الفساد بالأرض وحدها ارتباطًا مباشرًا في ثلاثة وعشرين موضعًا.([2])

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٥١٨، ٥١٩ – ط – ١٣٦٤هـ – دار الكتب المصرية – القاهرة.

(٢) في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) [البقرة: ١١]، (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) [البقرة: ٢٧، الرعد: ٢٥]، (وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) [البقرة: ٦٠، الأعراف: ٧٤، هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣، العنكبوت: ٣٦]، (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) [المائدة: ٣٢]، (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا) [المائدة: ٣٣]، (كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا) [المائدة: ٦٤]، (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) [الأعراف: ٥٦، الأعراف: ٨٥]، (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا) [هود: ١١٦]، (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) [يوسف: ٧٣]، (لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) [الإسراء: ٤]، (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) [الكهف: ٩٤]، (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) [الشعراء: ١٥٢]، (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) [النمل: ٤٨]، (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ) [القصص: ٧٧]، (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ) [ص: ٢٨]، (أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) [غافر: ٢٦]، (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) [محمد: ٢٢].

وارتبط بالسماء والأرض معًا دون غيرهما في موضع واحد.(١)

وارتبط بهما ومَنْ فيهنّ في موضع واحد.(٢)

وارتبط بالضمير العائد على الأرض في موضعين.(٣)

وارتبط بالبَرّ والبَحْر في موضع واحد فقط(٤)، وهما – كما هو معلوم – على وجه الأرض.

وارتبط بالقرية في موضع واحد فقط.(٥)

وارتبط بالفساد في البلاد في موضع واحد فقط.(٦)

ووَرَدَ مطلقًا، أي: دون ارتباط بشيء في ثمانية عشر موضعًا(٧)، لكن سياق الآيات دلّ على أن المقصود به في هذه المواضع: الفساد في الأرض.

---

(١) في قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء: ٢٢].

(٢) في قوله تعالى: (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِن) [المؤمنون: ٧١].

(٣) في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) [البقرة: ٣٠]، وقوله تعالى: (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا) [البقرة: ٢٠٥].

(٤) في قوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) [الروم: ٤١].

(٥) في قوله تعالى: (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) [النمل: ٣٤].

(٦) في قوله تعالى: (وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ) [الفجر: ١٠ : ١٢].

(٧) في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) [البقرة: ١١]، (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) [البقرة: ٢٠٥]، (وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ) [البقرة: ٢٢٠]، (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ) [آل عمران: ٦٣]، (كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ = =وَيَسْعَوْنَ

وارتباط الفساد بالأرض – في القرآن الكريم – تابع لمحل وجود الإنسان في هذا الكون الفسيح، ولعل من أسرار ارتباط الفساد بالأرض تفظيعَ فساد المفسدين، من حيث إنه مبثوث في هذه الأرض؛ لأن وقوعه في رقعة منها تشويه لمجموعها، أو لبيان عموم فسادهم، والمراد بالأرض: هذه الكرة الأرضية التي نعيش عليها، بما تحتوي عليه من الأشياء القابلة للإفساد، من الناس والحيوان والنبات وسائر الأنظمة والنواميس التي وضعها الله تعالى لها.(١)

ويقول أبو حيان (ت ٧٤٥هـ): (وليس ذكر الأرض لمجرد التوكيد، بل في ذلك تنبيه على أن هذا المحلّ الذي فيه نشأتُكم وتصرُّفُكم، ومنه مادةُ حياتكم، وهو سترةُ أمواتكم، جديرٌ أنْ لا يُفْسَدَ فيه، إذ محلّ الإصلاح لا ينبغي أنْ يُجعل

فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) [المائدة: ٦٤]، (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ) [الأنفال: ٧٣]، (وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) [الأعراف: ٨٦]، (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) [الأعراف: ١٠٣، النمل: ١٤]، (وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) [الأعراف: ١٤٢]، (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) [يونس: ٤٠]، (إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) [يونس: ٨١]، (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) [يونس: ٩١]، (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) [النحل: ٨٨]، (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) [القصص: ٤]، (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) [القصص: ٧٧]، (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) [القصص: ٨٣]، (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ) [العنكبوت: ٣٠].

(١) ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور ٢٨٥/١ الناشر: دار سحنون – تونس، اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل ٥٠٠/١ تحقيق الشيخ أحمد عبد الموجود وآخرين – ط – الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، زهرة التفاسير، للإمام محمد أبو زهرة ١٢٩/١ – ط – دار الفكر العربي.

محلّ الإفساد).(١)، وفي ذكر الأرض تنبيهٌ آخرُ على أنّ هذا الإفسادَ واقعٌ منْ هؤلاء في دار مملوكة لمُنْعم أسكنهم بها وخولهم بنعمها، وفي هذا إشارة إلى قُبْح فعلهم، كما قال القائل:

وَأَقْبَحُ خَلْقِ اللهِ مَنْ بَاتَ عَاصِيًا لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ(٢)

وإذا كان من المقرر أنّ الأرض إنَّما تَفْسُدُ بأهلها وتَصْلُحُ بهم(٣)، فإن الإفساد في الأرض ارتبط في القرآن الكريم بالإنسان، يتضح ذلك من الآيات القرآنية، حيث نسبت الإفسادَ إلى الإنسان، من ذلك:

قوله تعالى: (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) [الكهف: ٩٤].

في الآية السابقة نُسب الإفساد في الأرض إلى يأجوج ومأجوج، وهما من نسل آدم عليه السلام(٤)، وذهب بعض العلماء إلى أن الإفساد لم يكن متحققًا

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ١٩٧/١ تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين – ط – الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

(٢) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي ١٥٣/١ – ط – الرابعة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.

(٣) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد بن علي رضا ١٣٢/١ – ط – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م.

(٤) قال أبو حيان: ويأجوج ومأجوج من ولد آدم قبيلتان، وقيل: هما من ولد يافث بن نوح . وقيل: يأجوج: من الترك، ومأجوج: من الجيل والديلم). البحر المحيط ١٥٤/٦، وقال البقاعي: (وقد ثبت في الصحيح في حديث بعث النار أنهم من ذرية آدم عليه السلام). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي ١٣٥/١٢ – ط – دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، والحديث المشار إليه أخرجه البخاري: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ = =ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا،

منهم، بل كان متوقعًا، حيث خاف القومُ الذين كانوا بين السدين من إفساد يأجوج ومأجوج عند خروجهم، فطلبوا من ذي القرنين وجهَ التحرّز منهم(١)، وذهب آخرون إلى أن الإفساد من يأجوج ومأجوج كان متحققًا بالفعل في أرض هؤلاء القوم؛ لذا طلبوا من ذي القرنين بناء سدّ يحميهم منهم، وذكروا أن الإفساد كان بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع، وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، حيث كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضرَ إلا أكلوه، ولا يابسًا إلا احتملوه وأدخلوه أرضَهم، وقيل: كانوا يأكلون الناس.(٢)

فالملاحظ – هنا – أنّ المفسرين لم يقتصروا في بيان وجوه إفساد يأجوج ومأجوج على القتل وحده، كما فعل أصحاب (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) كما مرّ بنا سابقًا(٣).

وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ)، الجامع الصحيح، للبخاري ٤٥٨/٢، ٤٥٩ حديث رقم (٣٣٤٨) كتاب بدء الخلق، باب قصة يأجوج ومأجوج، تحقيق محب الدين الخطيب وآخرين – ط – الأولى ١٤٠٣هـ – المطبعة السلفية بالقاهرة.

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري ١١١/١٨، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٥٦/١١، معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي ٢٠٤/٥.

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري ١٠٤/١٨، البحر المحيط ١٥٤/٦، التفسير الكبير، للفخر الرازي ٤٩٩/٧ – ط – الثانية ١٤١٥هـ ١٩٩٧م – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان، الجامع لأحكام القرآن ٥٦/١١، معالم التنزيل ٢٠٤/٥، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود ٢٤٥/٥ – ط – الثانية ١٤١١هـ ١٩٩٠م – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان، اللباب، لابن عادل ٥٦٤/١٢.

(٣) تنظر: ص١٩ من هذا البحث.

وحسنًا ما فعله المفسرون عندما أشاروا إلى أن إفساد يأجوج ومأجوج يعمّ وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وإذا أردنا أن نربط بين هذه الوجوه وبين المعنى اللغوي للفساد، سنجد أن إفساد يأجوج ومأجوج في الأرض معناه: تغيير الأرض عما كانت عليه من الصلاح، وفي ذلك خروج عن حدّ الاعتدال، فالأصل أن تكون الأنفسُ مصونةً لا تُزْهَق إلا بحقها، ووفقًا للضوابط الشرعية؛ لذا نجد في القرآن الكريم ارتباطًا وثيقًا بين الإفساد في الأرض وقتل النفس، ومحاربة الله ورسوله، وسفك الدماء، والإفساد في الأرض وإهلاك الزرع.

المطلب الثاني: الفساد وقتل النفس

قال تعالى معقبًا على نبأ ابنيْ آدم: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ) [المائدة: ٣٢].

فالله – عز وجل – يوضح ويبين لنا أنه قضى على بني إسرائيل أنه من قَتَلَ نفسًا واحدة بغير قتْل نفسٍ يوجب القصاصَ – لقوله تعالى: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) [المائدة: ٤٥] – أو بغير فسادٍ في الأرض يُوجب إهْدارَ دَمِهَا – لقوله تعالى: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ) [المائدة: ٣٣] – فكأنما قتل الناس جميعًا، فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله.(١)

(١) ينظر: البحر المحيط ٤٨٣/٣، إرشاد العقل السليم ٢٩/٣، تفسير المنار ٢٨٨/٦.

وذهب الطبري (ت٣١٠هـ) إلى أن الفساد في الأرض (إنما يكون بالحرب لله ولرسوله، وإخافة السبيل)(١)، وذهب ابن الجوزي إلى أن المراد بالفساد هنا /القتل، والجراح، وأخذ الأموال، وإخافة السبيل)(٢)، وذكر أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) عدة أقوال في بيان المراد بالفساد في قوله تعالى: (أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ) وهي: الشرك بالله، وقطع الطريق، وقطع الأشجار، وقتل الدواب إلا لضرورة، وحرق الزرع وما يجري مجراه، ثم قال: وهو الفساد المشار إليه بعد هذه الآية(٣)، يشير إلى قوله تعالى: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا) [المائدة: ٣٤]، وفي هذا بيان وجه ارتباط الإفساد في الأرض بمحاربة الله ورسوله؛ لأن السعي في الأرض فسادًا إنما يكون بالعمل (في أرض الله بالمعاصي: من إخافة سُبُل عباده المؤمنين به، أو سُبُل ذمتهم، وقطعِ طرقهم، وأخذ أموالهم ظلمًا وعدوانًا، والتوثُّب على حرمهم فجورًا وفُسُوقًا).(٤)

ومعنى كلام أبي حيان – السابق – أن الفساد في الأرض لا يختص به عمل معين من أعمال الفساد دون غيره، كالقتل مثلاً، أو قطْع الطريق أو غير ذلك، وإنما المقصود به ما يعمُّ كلَّ عملٍ من شأنه تغيير الشيء عمّا كان عليه من الصلاح، حتى يتلف أو يهلك، ولا يُنتفع به؛ لذا وضع الشارع الحكيم حدًّا للحرابة حتى يرتدع المفسدون ويكفُّوا أذاهم عن المسلمين الصالحين، فأوضح الحقُّ – تبارك وتعالى – أن المفسدَ في الأرض لا جزاء له في الدنيا إلا القتلُ،

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ٢٣٢/١٠.
(٢) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي ص٣٧٨ – ط – الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م – المكتب الإسلامي – دار ابن حزم– بيروت – لبنان.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٤٨٣/٣.
(٤) جامع البيان ٢٥٧/١٠.

والصلب، وقطعُ اليد والرِّجل من خلافٍ، أو النفي من الأرضِ، خزيًا له، وأما في الآخرة – إن لم يتبْ في الدنيا – فعذاب عظيم.([1])

ونجد – كذلك – في آية أخرى ارتباطًا بين الإفساد وسفك الدماء (القتل) وذلك في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٣٠]، فالله – عز وجل – يخبر الملائكة بأنه خالقٌ أو مُصَيِّرٌ (على خلاف في ذلك بين المفسرين) في الأرض خليفة، أي: قومًا يخلف بعضهم بعضًا، قرنًا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، والظاهر أنه لم يُرِدْ آدمَ عينًا إذ لو كان كذلك لما حسن قولُ الملائكة: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) فإنهم إنما أرادوا أنّ مِنْ هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاصّ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، أو غير ذلك، وهذا السؤال من الملائكة إنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء.([2])

والشاهد – هنا – أن الإفساد في الأرض وسفك الدماء نُسب إلى الإنسان، وارتبط به.

(١) ينظر: جامع البيان ٢٤٣/١٠.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٢١٦/١ تحقيق/ سامي محمد سلامة – ط – الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، اللباب ٥٠٠/١.

المطلب الثالث: الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل

إذا كان من المقرر عقلاً وشرعًا أنّ الأنفسَ مصونةٌ فلا يجوز إزهاقها إلا بحقها، فإنّ الزروعَ والثمارَ وأملاكَ المسلمين مما يجب الحفاظ عليها – أيضًا – ولا يجوز العبث بها، أو إتلافها بحرقٍ أو غيره، فقد ذمّ الله – تعالى – من يفعل ذلك فقال: **(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) [البقرة: ٢٠٥]**، فإذا كان في الآيات السابقة ارتباطٌ بين الإفساد في الأرض وقتل النفس، فإنّ في هذه الآية ارتباطًا بين الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل، فالمصاحبة اللفظية بينهما تدل على أنه كما أنّ الاعتداء على الأنفس بغير حقّ إفساد في الأرض، بل من أعظم الإفساد فيها، فالاعتداء على الزروع والثمار وأملاك المسلمين من الإفساد في الأرض(١)، الذي يجب الابتعاد عنه، والتحرز من الوقوع فيه.

والإفساد المذكور في الآية التي معنا فسّره بعضهم بقطْع الطريق وإخافة السبيل، وفسره آخرون بقطع الرحم، وإذا كان هذا وذاك من الإفساد في الأرض، فإن الطبري – رحمه الله تعالى – رجّح المعنى الأول (أي: قطع الطريق وإخافة السبيل) استنادًا إلى سياق الآية.(٢)

---

(١) ذهب السّدي إلى أن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي – وهو حليفٌ لبني زُهرة – وأقبل إلى النبيّ – صلى الله عليه وسلم – بالمدينة، فأظهر له الإسلام، فأعجبَ النبيَّ – صلى الله عليه وسلم – ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أنّي صادق! وذلك قوله: " ويشهد الله على ما في قلبه" ثم خرج من عند النبي – صلى الله عليه وسلم – فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمر، فأحرق الزرع، وعقر الحُمُرُ، فأنزل الله عز وجل:" وإذا تولى سعَى في الأرض ليُفسد فيها ويُهلك الحرْثَ والنسل" . جامع البيان ٢٢٩/٤، ٢٣٠.

(٢) جامع البيان ٢٣٩/٤.

المطلب الرابع: اليهود والإفساد في الأرض

قال تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) [المائدة: ٦٤]

فالآية الكريمة تخبرنا بمقالة اليهود – عليهم لعنة الله – الشنيعةِ البغيضةِ؛ وأنّ الله – عز وجل – رَدَّ عليهم ما قالوه، وبيَّن أنه سبحانه وتعالى هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، ثم أخبر الله –عز وجل – نبيَّه محمدًا – صلى الله عليه وسلم – بأنّ ما آتاه الله من النعمة يكون نقمة في حق أعدائه من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقًا وعملاً صالحًا وعلمًا نافعًا، يزداد به الكفرة الحاسدون له ولأمته (طُغْيَانًا) أي: مبالغة ومجاوزة للحد في الأشياء (وَكُفْرًا) أي: تكذيبًا، وأن هؤلاء اليهود لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فِرقهم بعضهم في بعض دائمًا، وأنهم كلما عقدوا أسبابًا يكيدون بها النبيَّ – صلى الله عليه وسلم – وكلما أبرموا أمورًا يحاربونه بها، يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ثم بيَّن – عز وجلّ – أنّ اليهود من سجيتهم أنهم دائمًا يسعوْن في الإفساد في الأرض، وأنه لا يحب مَنْ هذه صفته.([1])

وذهب الطبري (ت ٣١٠هـ) إلى أنّ السّعي في الأرض فسادًا معناه – هنا –: عَمَلُ اليهود والنصارى بمعصية الله، فيكفرون بآياته ويكذبون رسله، ويخالفون أمره ونهيه([2])، وذهب القرطبي (ت ٦٧١هـ) إلى أنّ معناه: سَعْيُ

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ١٤٥/٣ : ١٤٧.
(٢) جامع البيان ٤٦١/١٠.

اليهود في إبطال الإسلام، وأنّ ذلك من أعظم الفساد(١)، وهذا كلامٌ عامٌّ كما هو واضح.

أما الشيخ محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) فكانت عبارتُهُ أكثرَ تفصيلاً، حيث قال: (أَيْ إنَّهُم لم يكونوا فيما يأتونَهُ، أو على مَا يأتونَهُ مِنْ عَداوةِ النَّبِيِّ والمؤمنين، وإيقادِ نِيرَانِ الحرْبِ والفتنِ والقتالِ، مُصْلِحِينَ للأخلاقِ والأعمالِ، أو لشُئونِ الاجتماعِ والعُمْرانِ، بلْ كانوا يَسْعَوْنَ في الأرض سعْيَ فسادٍ، أو لأجْلِ الفسادِ، بمُحاولَةِ منْع اجتماع كلمة العرب، وخروجهم منَ الأميَّة إلى العِلْم، ومنَ الوثنيَّة إلى التَّوْحيد، وبِالكَيْدِ للمؤمنين، وتشكيكِهِمْ في الدِّين؛ حَسَدًا لهم، وحُبًّا في دَوَام امْتيازِهم عليهم، واللهُ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ في الأرض، فَلَا يَصْلُحُ عملُهُم، ولَا يَنْجَحُ سعْيُهُم؛ لأنَّهُم مُضَادُّونَ لحِكْمتِه في صلاح النَّاس وعُمْرَان البلاد.(٢)

فالآية تقرر – ضمن ما تقرر – أنّ السَّعْي في الأرض فسادًا، من عَمَلِ اليهود الدائم في هذه الحياة الدنيا، وكأنّ بينهم وبين الإفساد في الأرض مصاحبةً مستمرةً ما داموا ودامت الحياة، حيث إنهم يعملون دائمًا على تغيير الأشياء الصالحة، وخروجها عن حَدَّ الاعتدال، بحيث تفقد صلاحيتها، ولا ينتفع بها غيرهم.

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/٢٤١.
(٢) تفسير المنار ٦/٣٨٠.

المطلب الخامس: الإفساد والعُلُوّ في الأرض:

وردت المصاحبة بين الإفساد والعُلُوّ في الأرض في ثلاث آيات من آي الذكر الحكيم، ونُسبت الصفتان المذمومتان في إحدى الآيات الثلاث إلى بني إسرائيل، ونُسبتا في الثانية منها إلى فرعون، بينما جاءت الصفتان في الآية الثالثة تعقيبًا على قصة قارون، ومن المعلوم أن قارون كان من قوم موسى – عليه السلام –([1])، لكن الآية جاءت عامة لا تختصّ بقارون وحده، وبناء على ذلك يمكن القول بأنّ الإفساد في الأرض والعُلُوّ فيها يقع من الفرد كما يقع من الجماعة، وسنقف – فيما بعد إن شاء الله تعالى – وقفةً لتجلية هذا الأمر.([2])

الآية الأولى: قال تعالى: (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) [الإسراء: ٤].

لما ذكر الله – عز وجل – إنعامه على بني إسرائيل بإنزال التوراة عليهم، وبأنه جعل التوراة هدى لهم، بَيَّنَ أنهم ما اهتدوا بهداه، بل وقعوا في الإفساد.

والمعنى: وأعلمنا بني إسرائيل وأخبرناهم وأوحينا إليهم وَحْيًا مَقْضيّا مقطوعًا بحصوله، فيما أنزلناه في التوراة على موسى – عليه السلام – أنهم سيفسدون في الأرض: أرض الشام وبيت المقدس أو أرض مصر، أو في كلّ أرض يحلّون فيها مرتين، ويعصون اللّه، ويخالفون شرع ربّهم في التوراة مخالفتين لا مخالفة واحدة، وهما:

الأولى: مخالفة التوراة وتغييرها، وقتل بعض الأنبياء، مثل شعياء عليه السّلام، وحبس أرمياء حين أنذرهم سخط اللّه تعالى.

والثانية: قتل زكريا ويحيى وقصدُ قتل عيسى عليهم السّلام.

---

(١) قال تعالى: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ...) [القصص: ٧٦].
(٢) ينظر: ص٧٩، ٨٠ من هذا البحث.

ثم أعْلمهم باستكبارهم وتجبرهم، فقال: (وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيرًا) أي: ولتستكبِرُنّ عن طاعة الله سبحانه، أو لتغلِبُنّ الناسَ بالظلم والعدوان وتُفْرطُنّ في ذلك إفراطًا مجاوزًا للحدود.([1])

فمخالفةُ أحكام الله التي أنزلها في التوراة، وقتلُ الأنبياء عُبِّر عنه بالإفساد في الأرض، ذلك أن مخالفة أحكام الله فيها اتباع للهوى، يترتب عليه تدمير لكل ما هو صالح ونافع، وقتلُ النفس – لا سيما نفوس الأنبياء– من أعظم الإفساد، كما عُبِّر عن الاستعلاء على الناس بأنه سيكون عُلُوًّا كبيرًا؛ لأنه سيكون استعلاء بغير حقٍّ.

واقترن العُلُوّ بالإفساد في الأرض بسبب تمكّن الحقد والحسد من قلوب هؤلاء اليهود، ويفيد هذا الاقتران أمرين:

الأمر الأول: أن علوهم يعقبه طغيان، والطغيان يعقبه الإفساد.

الأمر الثاني: أن علوهم فيه اعتداء فاجر، فاعتداؤهم بقتل الأنبياء وأكلهم الربا والسحت وأن يقتل بعضهم بعضا.

ويلاحظ أنه ذكر الإفساد مرتين، ولم يذكر عدد العلو لأنه لا عدد له إن وجدت أسبابه.([2])

ومن المعلوم أن اليهودَ أهلُ فسادٍ وإفسادٍ على مرّ العصور، وفي العصر الحديث يتجلى إفسادهم في فلسطين على وجه الخصوص، وفي العالم كله

(١) ينظر: جامع البيان ٣٥٦/١٧ : ٣٦٣، الكشاف ٤٩٤/٣، ٤٩٥، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية ٤٤٠/٥ تحقيق الرحالة الفاروق، وآخرين – ط– الثانية ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م – مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر، إرشاد العقل السليم ١٥٦/٥، الجامع لأحكام القرآن ٢١٤/١٠، التفسير الكبير ٢٩٩/٧، معالم التنزيل ٧٧/٥/ ٧٨، اللباب ٢١٠/١٢، روح المعاني ١٦/١٥، ١٧.

(٢) ينظر: زهرة التفاسير ٤٣٣٣/٨، ٤٣٣٤.

على وجه العموم، فلا تكاد تسلم من فسادهم وإفسادهم بلدة، وقانا الله شرورهم، وأعاذنا منهم.

الآية الثانية: قوله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) [القصص: ٤].

ففي الآية الكريمة نُسِبَ العُلُوُّ في الأرض – وأعمالٌ أخرى شنيعة – إلى فرعون، وخُتمت الآية بالحكم على فرعون بالإفساد، وفي هذا إشارة إلى العلاقة بين الإفساد في الأرض وبين ما كان يفعله فرعونُ من العُلُوّ في الأرض، وجَعْلِ أهلها شِيَعًا، وجَعْلِ جماعةً منهم – وهم بنو إسرائيل – أذِلَّةً مقهورين، فيذبّح الذكور ويبقى الإناث أحياء، إهانة لهم واحتقارًا، وخوفًا من ظهور غلام منهم يكون سببُ هلاكهم وذهابُ دولتهم على يديه، إذ كلُّ ذلك من الإفساد في الأرض، بل إنّ فرعون ما كان يفعل ما يفعله إلا لأنه كان من الرَّاسخين في الإفساد؛ ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة، من قتل المعصومينَ من أولادِ الأنبياء – عليهم السلام – لتخيّل فاسد.(١)

العُلُوُّ في اللغة:(٢)

يقال: عَلَا فلانٌ الجَبَلَ: إذا رَقِيَه، يَعْلُوه عُلُوًّا، وعَلا فلانٌ فلانًا: إذا قَهَرَه، وعُلْو كلّ شيء وعِلْوه وعَلْوُه وعُلاوَتُه وعالِيه وعالِيَتُه: أَرْفَعُه، والعَلاءُ: الرِّفْعَةُ، والعُلُوُّ: العَظَمة والتَّجَبر، ويقال لكل مُتَجَبِّر: قد عَلا وتَعَظَّمَ، ويقال: قد استعلى

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم ٢/٧، ٣، روح المعاني ٤٣/٢٠.
(٢) ينظر: العين ٢٤٥/٢، تهذيب اللغة ١٨٣/٣، اللسان ٣٠٨٨/٤ وما بعدها، تاج العروس ٣٩/ ٨٢ وما بعدها (ع ل و).

فلان عَلَى الناس: إذا غلبهم وقهرهم وعلاهم، والعَلْياء: رأسُ كلّ جبلٍ أو شَرَفٍ، قال زُهير:

تبصَّرْ خليلِي هل ترى من ظَعائنٍ تحمّلنَ بالعلياء من فوق جُرْثُم

وذهب ابن فارس إلى أن (العين واللام والحرف المعتل ياءً كان أو واوًا أو ألفًا، أصلٌ واحد يدلُّ على السموّ والارتفاع، لا يشذُّ عنه شيء).(١)

ومما يؤيد صحة ما ذهب إليه ابن فارس القولُ المذكورُ منذ قليل: والعَلْياء: رأسُ كلّ جبلٍ أو شَرَفٍ.

وذهب الدكتور محمد حسن جبل إلى أن المعنى المحوري هو: ارتفاع الشيء فوق شيء تحته أو أدناه، وذكر أنّ استعمالات التركيب ترجع إلى هذا المعنى سواء أكان العُلُوّ ماديًّا أم معنويًّا أم كان صالحًا لهما، فالسياق يبيّن المراد، وذكر أنّ من معاني العُلُوّ المعنوية قولهم: عَلَا فلانٌ فلانًا: قهره، والعُلُوّ: التكبّرُ، والعَظَمَةُ، والشَّرَفُ.(٢)

وذهب أهل التفسير إلى أن المراد بعُلُوّ فرعون في الأرض: بَغْيُه، وتجبُّرُه، واستكبارُه، وتَعَظُّمُه حتى ادّعى الربوبية الإلهية(٣)، وأنه تجاوز الحدود المعهودة في الظلم والعدوان، وهو المذموم من العلو المعنوي، ومعناه: أن يستشعر نفسه عاليًا، غير محقوق لحق من دين، أو شريعة، أو رعي حقوق المخلوقات معه،

(١) مقاييس اللغة ١١٢/٤ (ع ل و).
(٢) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل ٣/ ١٥٠٨، ١٥٠٩ (علو).
(٣) إشارة إلى ما حكاه القرآن الكريم عنه من قوله: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) [القصص: ٣٨]، وقوله: (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) [النازعات: ٢٤].

وذهبوا إلى أن المقصود بالأرض – هنا – أرض مصر، فالتعريف فيها للعهد؛ لأن ذكر فرعون يجعلها معهودة عند السامع، ففرعون اسم ملك مصر.([1])

وللبقاعي (ت ٨٨٥هـ) تعليل لطيف في إطلاق لفظ الأرض – هنا – حيث قال: (وهي وإن كان المراد بها أرض مصر ففي إطلاقها ما يدل على تعظيمها وأنها كجميع الأرض في اشتمالها على ما قَلّ أنْ يشتمل عليه غيرها)([2])، وذهب الطاهر بن عاشور (ت ١٣٨٤هـ) إلى أنه يجوز أنْ يكون المراد بالأرض جميع الأرض يعني المشهور المعروف منها([3])، لكن السياق يرجح كون المراد بها أرض مصر.

أما سِرّ مصاحبة العُلُوّ للإفساد في الأرض فيتضح من كون العُلُوّ في الأرض نوعًا من أنواع الإفساد الصادرة عن فرعون، بل إنّ جَعْلَهُ أهلَ مصر شيعًا، واستضعافَهُ طائفةً منهم، وتذبيحَ الأبناء، واستحياءَ النساء هو من الإفساد في الأرض الناتج عن عُلُوّ فرعون فيها، أي: تجبره وبغيه واستكباره، الذي هو في حَدّ ذاته إفساد، وفرعون كان من المفسدين، (أي: الذين لهم عراقة في هذا الوصف، فلا بدع أن يقع منه هذا الجزئي المندرج تحت ما هو قائم به من الأمر الكلي)([4])، أي أن صدور هذه الأشياء عنه (أي: العلو في الأرض...الخ) أمر متوقع منه، غير مستغرب؛ لأنه قائم بما هو أعمّ من ذلك، وهو الإفساد في الأرض.

---

(١) ينظر: جامع البيان ٥١٦/١٩، البحر المحيط ٩٩/٧، التفسير الكبير ٥٧٨/٨، تفسير القرآن العظيم ٢٢٠/٦، روح المعاني ٤٢/٢٠، التحرير والتنوير ٦٧/٢٠/١٠.

(٢) نظم الدرر ٢٣٩/١٤.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٦٧/٢٠/١٠.

(٤) نظم الدرر ٢٤٠/١٤.

وتذييل الآية (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) تعليل لما قبلها، وهي تدلّ على شدّة تمكّن الإفساد من خُلُقه، وأنّ فِعْله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة.(١)

الأولى: التكبّر والتجبّر، وهذه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم، فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم والاجتراء على دحض حقوقهم، فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته؛ لذا كانت هذه الصفة هي أمّ المفاسد وجماعها؛ ولذلك قُدّمت على ما يذكر بعدها، ثم أعقبت بأنه (كان من المفسدين).

الثانية: أنه جعل أهل المملكة شيعًا وفرّقهم أقسامًا، وفي ذلك إفساد الأمّة؛ لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض.

الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته، فيجعلها مُحَقَّرَةً، مهضومةَ الجانب، وأشار بقوله: (طائفة) إلى أنه استضعف فريقًا كاملاً، فأفاد ذلك أن الاستضعاف جرى على اعتبار العنصرية والقبلية، وذلك فساد؛ لأنه يقرن الفاضل بالمفضول.

الرابعة: أنه (يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ) أي: يأمر بذبحهم.

الخامسة: أنه يستحيي النساء، أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال، فأطلق عليهم اسم النساء باعتبار المآل، إيماء إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء، فتصلحن لما تصلح له النساء، وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء، إذ كل ذلك اعتداء على الحق.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٦٨/٢٠/١٠.

الآية الثالثة: قوله تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [القصص: ٨٣].

والمعنى: تلك التي سمعتَ خبَرها، وبلغَك وصفُها (نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأرض) أي: ترفعًا على خلق الله، وتعاظمًا عليهم، وتجبرًا بهم، وغلبةً وتسلطًا (وَلاَ فَسَادًا) أي: ظُلمًا وعدُوانًا على العبادِ، وعملاً بمعاصي الله فيها، كدأبِ فرعونَ وقارونَ.([1])

مصاحبة الإرادة للعُلُوّ والفساد:

علَّق الله – عز وجل – الوعد بنعيم الجنة، الذي لا يزول ولا يَحُول، بترك إرادة العُلُوّ والفساد في الأرض، ومَيْلِ القلب إليهما، وليس بترك العُلُوّ والفساد ذاتهما، وفي هذا مزيد تحذيرٍ منهما، فالتعبير بالإرادة دون العمل مثلاً فيه تعظيمٌ لضرر الفساد بالتنفير من كل ما كان منه تسبب، وإعلامٌ بأن النفوس ميالة إليه، نزاعة له، فمهما رتعت قريبًا منه اقتحمته لا محالة، وإذا كان تعليق حصول نعيم الجنة على مجرد الإرادة ، فكيف بمن باشر العلوّ والفساد؟ وذلك لأنّ المقصودَ الأعظمَ طهارةُ القلب الذي عنه ينشأ عملُ الجوارح.([2])

مصاحبة العُلُوّ للفساد في هذه الآية:

أفادت المصاحبة بين اللفظين في هذه الآية ارتباط كل من العُلُوّ والفساد بعضهما ببعض، إذ العُلُوّ كما يقول البقاعي (ت ٨٨٥هـ): (أعظم جارٍّ إلى الفساد).([3])

---

(١) ينظر: جامع البيان ٦٣٧/١٩، الكشاف ٥٢٨/٤، إرشاد العقل السليم ٢٧/٧، تفسير القرآن العظيم ٢٥٨/٦.

(٢) ينظر: الكشاف ٥٢٨/٤، نظم الدرر ٣٧١/١٤، ٣٧٢، البحر المحيط ١٣١/٧، إرشاد العقل السليم ٢٧/٧.

(٣) نظم الدرر ٣٧٢/١٤.

وأقول: إن المترفّعَ على خَلْق الله، المتعاظمَ عليهم، المتجبّرَ بهم قد أفسد فطرته التي فطره الله عليها، حيث تغيرت، وخرجت عن استقامتها، فلم تَعُدْ على حالتها الأولى السويَّةِ التي خلقها اللهُ عليها، وفسدتْ، حيث خرجتْ عن حَدّ الاعتدال، واسْتَكْبَرَ صاحبها على خَلْق الله تعالى، وتجبَّر عليهم، بل استكبر على عبادة الله خالقِهِ ورازقِهِ، فَبَلَغَ – بذلك – أقصى درجات الفساد في نفسه، والإفساد في مجتمعه، فإذا كان العُلُوُّ في الأرض يؤدّي إلى إفسادها، فإفسادُ الفطرة يؤدّي إلى الترفّع على خلق الله، وبهذا يتضح سِرُّ الارتباط بين العُلُوّ والفساد في هذه الآية، وبين العُلُوّ والإفساد في غيرها.

المطلب السادس

الإفساد في الأرض ونقض العهد وقطع ما أمر الله به أن يوصل

وردت المصاحبة بين الإفساد في الأرض وهذين الخُلُقَيْن المذمومَيْن في آيتين من آي الذكر الحكيم، والآيتان متشابهتان في ألفاظهما عدا ختام كلٍّ منهما، إضافة إلى بدء إحداهما بحرف العطف (الواو) دون الثانية، والآيتان هما:

الأولى: قوله تعالى: (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [البقرة: ٢٧].

الثانية: قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) [الرعد: ٢٥].

والآية الأولى من الآيتين السابقتين مسبوقة بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِين) [البقرة: ٢٦] وذهب الإمام الزجاج (ت ٣١١هـ) إلى أنّ إعراب (الَّذِينَ) في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ...) (النصب على الصفة للفاسقين)(١)، وذكر الطاهر بن عاشور أنه يجوز أن تُعرب صفة للفاسقين لتقرير اتصافهم بالفسق؛ لأن هاته الخلال من أكبر أنواع الفسوق بمعنى الخروج عن أمر الله تعالى، ويجوز أن

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج ١٠٦/١ تحقيق د. عبد الجليل شلبي – ط – الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م – عالم الكتب – بيروت.

تكون مبتدأ، على القطع والاستئناف، لكنها في هذه الحالة الثانية لا تخرج – أيضًا – عن معنى توصيف الفاسقين بتلك الخلال؛ لورود الاستئناف إثر حكاية حال عن الفاسقين، لكنه رجح إعرابها صفة؛ إذ لا داعي إلى اعتبار القطع.([1])

ومعني هذا أن الصفات التي ذكرتها الآية التي معنا هي صفات الفاسقين؛ لذا يقول الشيخ رشيد رضا: (وَصَفَ الضَّالِّين بالفُسُوق، ثمَّ بَيَّنَ مِنْ حال فُسُوقهم نَقْضَ العَهْدِ المُوَثَّقِ، وَقَطْعَ ما يجبُ أنْ يُوصَلَ، والإفسادَ في الأرض، وَسَجَّلَ بذلك عليهم الخُسْرانَ).([2])

ورجح الطبري نزول هذه الآيات في كفار أحبار اليهود، ومَنْ كان على شركه من أهل النفاق، لكنها – في الوقت نفسه – معنيٌّ بها كلّ من كان على مثل ما كانوا عليه من الضّلال، ومعنيٌّ بما وافق منها صفة المنافقين خاصّةً، جميعُ المنافقين؛ وبما وافق منها صفة كفار أحبار اليهود، جميعُ من كان لهم نظيرًا في كفرهم.([3])

وذهب الطبري إلى أنّ إفسادهم في الأرض يتمثل في عبادتهم غير الله تعالى، ومعصيتهم ربهم، وتكذيبهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجحدهم نبوته([4])، وهذا المعنى قريب جدًّا مما ذكروه في بيان معنى نقض العهد المُوَثَّق، حيث قالوا: عهد الله الذي نقضوه هو: ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها، واتباع محمد – صلى الله عليه وسلم – إذا بعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضُهم ذلك هو: جحودُهم به بعد معرفتهم بحقيقته، وإنكارُهم ذلك، وكتمانُهم علم ذلك عن الناس، بعد إعطائهم

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٣٦٧/١.
(٢) تفسير المنار ٢٠٢/١.
(٣) ينظر: جامع البيان ٤١١/١، ٤١٢.
(٤) ينظر: جامع البيان ٤١٦/١.

الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنًا قليلاً، وقيل: هو العهدُ الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم(١) ونقضُهم ذلك: تركُهم الوفاء به.(٢)

فلا نكاد نجد فرقًا بين ما قاله الطبري في بيان معنى الإفساد في الأرض، وما ذُكِر في بيان معنى نقض العهد الموثق.

ولعلنا – بالاسترشاد بمصاحبة الإفساد في الأرض لنقض العهد المُوَثَّق وقطْع ما أمر الله به أن يوصل نستطيع القول بأن ما ذهب إليه آخرون في بيان المقصود بالإفساد في الأرض – هنا – هو الأقرب للصواب، حيث ذهبوا إلى أنّ معناه: الإضرارُ بعباد الله، وتغييرُ ما أمَرَ اللهُ بحفظه، وتعويقُ الناس عن الإيمان، وجَوْرُهم في الأفعال.(٣)

ثم بالاسترشاد بمَنْ نزلت فيهم الآية (كفار أحبار اليهود، ومَنْ كان على شركه من أهل النفاق، وتشمل – كما سبق– مَنْ كان على شاكلتهم) يمكن القول بأن الإفساد في الأرض يشمل – والله أعلم –: القتلَ وسفكَ الدماءِ، وتخريبَ العمرانِ، ونَشْرَ سوءِ الأخلاق، وإيقادَ نيرانِ الحروب والفتن، فهذا كلّه – وغيره – مرتبط باليهود والمنافقين ومَنْ كان على شاكلتهم، ولا ينفك عنهم على مَرّ الدهر؛ لذا وُصِفُوا بالإفساد في الأرض.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

(٢) ينظر: جامع البيان ٤١١/١، ٤١٢، معالم التنزيل ٧٧/١، تفسير القرآن العظيم ٢١٠/١، ٢١١.

(٣) ينظر: معالم التنزيل ٧٧/١، البحر المحيط ٢٧٤/١، الجامع لأحكام القرآن ٢٤٧/١.

أما الآية الثانية(١) فقد رجح الطاهر بن عاشور أنّ المقصود بها هم مشركو مكة؛ لأن السورة مكية(٢)، لكن هذا لا ينفي ما ذهبنا إليه من بيان المقصود بالإفساد في الأرض، فمعلوم لدى الكافة ما كان يقوم به مشركو مكة من إيذاءٍ للنبيّ – صلى الله عليه وسلم– والمؤمنين، وإيقادٍ لنيران الحروب، وصدٍّ عن سبيل الله، يضاف إلى ذلك قولُ الطاهر بن عاشور: (واعلم أن نزول هذه الآيات ونحوها في بعض أهل الكتاب أو المشركين هو وعيدٌ وتوبيخٌ للمشركين وأهل الكتاب، وهو أيضًا موعظةٌ وذكرى للمؤمنين؛ ليعلم سامعوه أن كل من شارك هؤلاء المذمومين فيما أوجب ذمَّهم، وسبب وعيدهم، هو آخذٌ بحظٍّ مما نالهم من ذلك، على حسب مقدار المشاركة في المُوجِب).(٣)

(١) أي: قول الله تعالى: (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) [الرعد: ٢٥].
(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٣٧٢/١.
(٣) التحرير والتنوير ٣٧٣/١.

المطلب السابع: الإفساد في الأرض والتّوَلّي والعِلْم

قال تعالى: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ) [آل عمران: ٦٢، ٦٣].

في الآية السابقة وَرَدَ الإفسادُ في الأرض مرتبطًا بالتّوَلّي والعِلْم، ولهذه المصاحبة في النظم القرآني حكمة لعلنا نستطيع الوقوف عليها، ونقف أولاً مع بيان معنى التَّوَلّي والعِلْم في اللغة.

التّوَلّي في اللغة:

يقال: وَلِيَ الشيءَ وَوَلِيَ عليه وِلايةً وَوَلايةً(١)، وتَوَلَّى العملَ: تقلّده، وَوَلَّى الشيءُ وَتَوَلَّى: أدْبَرَ، وَوَلَّى عنه: أعْرَضَ عنه أوْ نَأى(٢)، وذهب الأزهري (ت ٣٧٠هـ) إلى أنّ التَّوَلّي يأتي بمعنى: الإعراض، وبمعنى: الاتّباع، قال الله تعالى: (وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمِ) [محمد: ٣٨]، أي: إنْ تُعرضوا عن الإسلام، وأما قوله تعالى: (وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ) [التوبة: ٢٣]، فمعناه: من يَتَّبعهم ويَنْصرهم.(٣)

وبناء على ما سبق فالتّوَلّي يأتي بمعنى: تَقَلُّد الأمر، أي: من الوِلاية التي بمعنى الإمارة، ويأتي بمعنى: الإعراض عن الشيء، وبمعنى: الاتِّباع والنُّصْرة.

لكنه في الآية التي معنا وَرَدَ بمعنى الإعراض، والمعنى: فإن أدْبَرَ هؤلاء الذين حاجُّوك في عيسى، عما جاءك من الحق من عند ربك في عيسى وغيره

---

(١) نقل الأزهري عن الزجاج أنّ الوَلاية بالفتح تكون في: النُّصرة والنَّسب، أما الوِلاية، التي بمنزلة الإمارة، فمكسورة. ينظر: تهذيب اللغة ٤٤٩/١٥ (و ل ي). ولم أعثر على هذا النص في معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، والموجود هناك: (وتقرأ " الولاية " – بكسر الواو وفتحها – للهِ الحَقِّ، وتقرأ " الحَقُّ "، المعنى: في مثل تلك الحال بيانُ الولاية لله، أي عند ذلك يتبيَّنُ نَصْرُهُ). معاني القرآن وإعرابه، للزجاج ٢٨٩/٣.

(٢) ينظر: العين ٣٦٥/٨، تهذيب اللغة ٤٤٩/١٥ وما بعدها، المحيط في اللغة ٣٧٩/١٠، ٣٨٠، المحكم ٤٥٧/١٠، ٤٥٩، الصحاح ٢٥٢٩/٦، اللسان ٤٩٢٠/٦، ٤٩٢٥ (و ل ي).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة ٤٥٢/١٥ (و ل ي).

من سائر ما آتاك الله من الهدى والبيان، فأعرضوا عنه ولم يقبلوه "فإن الله عليم بالمفسدين"(١).

العِلْم في اللغة:

العِلْم: نقيض الجَهْل(٢)، ويأتي العِلْم بمعنى: المعرفة(٣) وبمعنى اليقين، وإذا كان (عَلِمَ) بمعنى اليقين تَعَدّى إلى مفعولين، وإذا كان بمعنى عَرَفَ تَعَدّى إلى مفعول واحد(٤)، ويقال: عَلِمَ به: شَعَرَ.(٥)

وقال الراغب (ت ٥٠٢هـ): (العِلْم إدراك الشيء بحقيقته).(٦)

وقال أبو حيان (ت ٧٤٥هـ): (المعرفة: العِلْمُ المتعلق بالمفردات، ويَسْبقه الجهلُ، بخلاف أصل العِلْم فإنّه يتعلق بالنِّسب، وقد لا يسبقه الجهلُ، ولذلك لم يُوصف الله تعالى بالمعرفة، ووَصِفَ بالعِلْم).(٧)

مصاحبة الإفساد في الأرض للتّوَلِّي والعِلْم:

بعد أن بيّن الله – عز وجل – أنّ عيسى – عليه السلام – بَشَرٌ، وأنه مخلوقٌ من التراب، كما أنّ آدم – عليه السلام – مخلوقٌ من التراب، وبعد أن أرْشَدَ اللهُ – عزّ وجلّ– نبيَّه محمدًا – صلى الله عليه وسلم – إلى دعوة النصارى – إنْ هم حاجُّوه في أمر عيسى – عليه السلام – إلى المُباهلة، ذَكَرَ

(١) جامع البيان ٤٧٦/٦، ٤٧٧،
(٢) ينظر: العين ١٥٢/٢، الجمهرة ٩٤٨/٢، مقاييس اللغة ١١٠/٤، المحكم ١٧٤/٢، اللسان ٣٠٨٣/٤ (ع ل م).
(٣) ينظر: تهذيب اللغة ٤١٩/٢، الصحاح ١٩٩٠/٥، اللسان ٣٠٨٣/٤، تاج العروس ١٢٦/٣٣ (ع ل م).
(٤) ينظر: المصباح ص٤٢٧ (ع ل م).
(٥) ينظر: المصباح ص٤٢٧، اللسان ٣٠٨٣/٤، تاج العروس ١٢٦/٣٣ (ع ل م).
(٦) المفردات في غريب القرآن ص٤٤٦ (ع ل م).
(٧) البحر المحيط ٤٦٦/١.

المَوْلى – عزّ وجلّ – أن ما أَخْبَرَ به عن عيسى – عليه السلام – هو الحقُّ الثابت الذي لا يسوغ لأحد أن ينكره، ولا أن يتشكك فيه، ثم عَقَّبَ على ذلك بهذا الوعيد إنْ هم تَوَلَّوْا وأعرضوا عما جاءهم من الحقّ، لكنّ اللافت للنظر هنا أنّ القرآن الكريم عَدّ هذا الإعراضَ من باب الإفساد، فالمعرضون عما جاءهم من الحق مفسدون، يعلمُ اللهُ إفسادَهم، وسيجازيهم عليه، فهم يستحقون ما يقع عليهم من العقاب الذي توعّدهم الله به، فالارتباط بين التولّي والإفساد دليل (على أنّ توليهم إفسادٌ أيّ إفسادٍ)([1])؛ لذا نجد أنّ الله – عزّ وجلّ – قال: (فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)، أي: (ما يترتب على علمه بالمفسدين من معاقبته لهم، فعبر عن العقاب بالعِلْم الذي ينشأ عنه عقابُهم، ونَبَّهَ على العلّة التي توجب العقاب، وهي الإفساد)([2])، وقال أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ): (أي عليم بمن يُفْسد عباده، وإذا عَلِمَ ذلك جازى عليه)([3])، فهو من باب التهديد والوعيد، ومثله قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) [يونس: ٤٠]، قال أبو حيان: (وتَعَلُّقُ العِلْم بالمفسدين وحدهم تهديدٌ عظيمٌ لهم).([4])

كما أنّ إعراضهم عما جاءهم به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الحقّ دليل على (أنهم ليسوا طلابَ حقّ وهداية، ولكنهم دعاةُ باطل، وفي دعاوى الباطل يكون الفساد في الأرض؛ لأنه لا فساد في الأرض أكثرُ من فساد الاعتقاد، فإن فساد الاعتقاد، يدفع إلى فساد العمل).([5])

(١) البحر المحيط ٥٠٦/٢.
(٢) البحر المحيط ٥٠٥/٢، ٥٠٦، وينظر: اللباب ٢٩٤/٥.
(٣) معاني القرآن، للنحاس ٤١٧/١.
(٤) البحر المحيط ١٦١/٥.
(٥) زهرة التفاسير ١٢٥٥/٣.

وقال عز وجل: (فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)، (ولم يقل: فإن الله عليم بهم، أي: جاء النَّصُّ القرآنيُّ بالاسم الظاهر ولم يأت بالمضمر (ليدلّ على أنّ التّوَلِّي عن الحُجَج والإعراضَ عن التوحيد، إفسادٌ للدين والاعتقادِ المؤدّي إلى فساد النّفْس، بل وإلى فساد العالم).(١)

فإفساد هؤلاء كان العلةَ التي من أجلها توعدهم الله – عزّ وجلّ – بالعقاب، لذا سلك بها طريق الاسم الظاهر دون المضمر، كما أنّ في التصريح بالاسم الظاهر تنفيرًا منه(٢)، فإذا كان عقابُ الله ينتظر المفسدين فالأوْلَى بالعاقل أنْ يجتنب الإفساد، ولا يسلك سبيل المفسدين، كي ينجو من هذا العقاب الذي توعدهم الله به.

أما قوله – عزّ وجلّ –: (بِالْمُفْسِدِينَ) – بصيغة الجمع – دون صيغة الإفراد (بالمفسد)؛ فذلك للدلالة (على العموم الشامل لهؤلاء الذين تَوَلَّوْا ولغيرهم)(٣)، وفيه – كذلك – إشارة إلى اجتماعهم وتمالئهم حتى يعظم فسادهم ويستشري، ويظن الناس أنه لا سبيل إلى مواجهته، فأتى القرآن الكريم بصيغة الجمع لبيان أنهم إذا كانوا مجتمعين على الإفساد فإن الله عليم بهم وسيجازيهم على أعمالهم، فلْيحذروا غضب الله ونقمته.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي ١٦٣/١ – ط – الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، وينظر: إرشاد العقل السليم ٤٧/٢.
(٢) ينظر: نظم الدرر ٤٤٦/٤.
(٣) البحر المحيط ٥٠٦/٢.

المطلب الثامن: الإفساد في الأرض والتولي وتقطيع الأرحام

قال تعالى: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) [محمد: ٢٢].

في هذه الآية إشارة إلى فساد قولٍ قالوه، حيث قالوا: كيف نقاتل، والقتل إفسادٌ، والعربُ من ذوي أرحامنا وقبائلنا؟! فقال الله تعالى: (إِن تَوَلَّيْتُمْ) لا يقعُ منكم إلا الفساد في الأرض، فإنكم تقتلون من تقدرون عليه، وَتَنْهَبُونه، والقتال واقعٌ بينكم، أليس قتلكم البنات إفسادًا وقطعًا للرحم؟! فلا يصح تعللكم بذلك مع أنه خلاف ما أمر الله، وهذا طاعةٌ.(١)

أما عن معنى التَّوَلِّي فقد سبق الحديث عنه، وأنّه يأتي بمعنى الإعراض، ويأتي بمعنى: إعطاء الوِلاية، أي: يكون – في هذه الحالة – مطاوعًا للفعل: وَلَّاه، أي: أعطاه ولاية، وبهذين المعنيين فسَّر العلماء لفظة (تَوَلَّيْتُمْ) الواردة في الآية التي معنا(٢)، لكن رجح أبو حيان، وابن عادل، والطاهر بن عاشور أن تكون بمعنى الإعراض؛ لأن الاستعمال الآخر (بعيدٌ من اللفظ ومن النظم، وفيه تفكيكٌ لاتصال نظم الكلام، وانتقال بدون مناسبة).(٣)

وهذا الرأي هو الذي تطمئن إليه النفس، حيث يعضده السياق، أما تفسير التَّوَلِّى بأنه بمعنى الولاية، فمع احتمال الاشتقاق له، واستئناس بعضهم لصحته

(١) ينظر: التفسير الكبير ٥٤/١٠، اللباب ٤٥٥/١٧، التحرير والتنوير ١١٢/٢٦/١٢.
(٢) ينظر: معاني القرآن، للنحاس ٤٨٢/٦، المحرر الوجيز ٦٥٣/٧، الكشاف ٥٢٥/٥، التفسير الكبير ٥٤/١٠، ٥٥، معالم التنزيل ٢٨٧/٧، زاد المسير ص١٣١٢، الجامع لأحكام القرآن ٢٤٥/١٦، روح المعاني ٦٨/٢٦، ٦٩.
(٣) التحرير والتنوير ١١٢/٢٦/١٢، وينظر: البحر المحيط ٨٢/٨، اللباب ٤٥٥/١٧.

بقراءة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – : (تُوُلِّيتُم)([1])، فإنه يظلّ معنى صحيحًا لهذه القراءة الشاذة، أما القراءة المتواترة (تَوَلَّيْتُمْ) فمعناها الإعراض، ويكون تعدد المعنى ناشئًا من تعدد القراءات القرآنية، وهذا أمْرٌ لا غضاضة فيه.

مصاحبة الإفساد في الأرض للتَّوَلِّي وتقطيع الأرحام:

ذكرنا فيما سبق أن التولي عما بيّنه الله – عزّ وجلّ – هو في حدّ ذاته إفساد في الأرض، وفي الآية التي معنا يوضح الله – جلّ وعلا – أنّ الإعراض عن الجهاد في سبيله يؤدّي – حتمًا – إلى الإفساد في الأرض، من حيث إنهم إن أعرضوا عن قتال أعداء الله وأعداء رسوله – صلى الله عليه وسلم – فسيعودون إلى ما كانوا عليه في الجاهلية من سفك الدماء ونهب الأموال، وليس هذا فقط بل سيقترن بذلك ويصاحبه قطع الأرحام، بالعقوق ووأد البنات، والرجوع إلى الفرقة مرة أخرى بعد أن جمعهم الله بالإسلام، بل وإلى سائر مفاسد الجاهلية، قال قتادة: كيف رأيتُمُ القوم حين تَوَلَّوْا عن كتاب اللَّه أَلَمْ يَسْفِكُوا الدَّم الحرام، وَقَطَّعُوا الأرحام، وَعَصَوُا الرَّحمن؟([2])

ويلاحظ أن الله – عز وجل – عطف تقطيع الأرحام على الإفساد في الأرض، – والعطف من صور المصاحبة – مع أنّ تقطيع الأرحام من الإفساد

(١) والمعنى: (إن تَوَلَّاكم وُلاةٌ ظَلَمَةٌ جُفاة غَشَمَةٌ، ومشيتم تحت لوائهم، وأفسدتم بإفسادهم معهم، وقطعتم أرحامكم، والنبي – عليه السلام – لا يأمركم إلا بالإصلاح وصلة الأرحام، فلم تتقاعدون عن القتال وتتباعدون في الضلال؟!) التفسير الكبير ٥٥/١٠، وينظر: معالم التنزيل ٢٨٧/٧، البحر المحيط ٨٢/٨.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٧٧/٢٢، معالم التنزيل ٢٨٧/٧، معاني القرآن، للنحاس ٤٨٢/٦، الكشاف ٥٢٥/٥، الجامع لأحكام القرآن ٢٤٥/١٦، اللباب ٤٥٥/١٧.

في الأرض، أي هو من باب عطف الخاصّ على العام؛ وذلك تنبيهًا على منزلة صلة الرحم في الإسلام، والتنفير من قَطْعها أوْ تَقْطيعها.([1])

والاستفهام في الآية الكريمة خرج عن معناه الحقيقي إلى غرض بلاغي، وهو التقرير([2])، ليقرر المخاطَب بمضمون الجملة، فلا يستطيع الإنكار، وبذلك يتقرر أنّ الإعراضَ عما أمر الله يتبعه حتما بل يلازمه ويصاحبه الإفسادُ في الأرض، وأنّ قطع الرحم يصاحب الإفساد.

(١) قال أبو حيان: قرأ الجمهور: (تُقَطِّعُوا)، بالتشديد على التكثير، وأبو عمرو – في رواية – وسلام، ويعقوب، وأبان، وعصمة: بالتخفيف، مضارع قَطَعَ). البحر المحيط ٨٢/٨، وينظر: معالم التنزيل ٢٨٧/٧.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٥٤/١٠.

المطلب التاسع: الإفساد في الأرض والسرقة

قال تعالى: (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) [يوسف: ٧٣].

قيل: إن المقصود بالإفساد في الأرض – هنا –: السّرقة؛ لأن السّرقة من الإفساد، بل من أعظم أنواعه(١)، وقيل: الإفسادُ بوجه عام، أيْ: (أيّ إفسادٍ كان مما عزّ أو هان، فضلاً عما نسبتمونا إليه من السّرقة)(٢)، وقيل: المعصيةُ، أي: ما جئنا لنعصى الله في أرضكم(٣)، وقيل: الظلمُ، والمعنى ما جئنا لنظلم أحدًا.(٤)

ولعل المقصود بالإفساد هو عموم الإفساد، بمعنى أنهم نفوْا عن أنفسهم الوقوع في الإفساد بجميع صوره، ظلمًا كان أو سَرِقَةً، أو اعتداءً على أملاك الغير، أو غير ذلك من أنواع الإفساد في الأرض.

(ونفى المجيء للإفساد وإنْ لم يكن مستلزمًا لما هو مقتضى المقام من نفى الإفساد مطلقًا، لكنهم جعلوا المجيء الذى يترتب عليه ذلك – ولو بطريق الاتفاق – مجيئًا لغرض الإفساد مفعولاً لأجله ادعاء إظهارًا لكمال قبحه عندهم،

---

(١) ينظر: النكت والعيون، للماوردي ٦٣/٣ تحقيق السيد بن عبد المقصود – ط – دار الكتب العلمية – بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، معالم التنزيل ٢٦١/٤، فتح القدير، للشوكاني ص٧٠٦ اعتنى به وراجع أصوله يوسف الغوش – ط – الرابعة ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م – دار المعرفة – بيروت – لبنان، إرشاد العقل السليم ٢٩٥/٤، روح المعاني ٢٦/١٣.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم ٢٩٥/٤، روح المعاني ٢٧/١٣.

(٣) ينظر: جامع البيان ١٨١/١٦، بحر العلوم، للسمرقندي ١٧١/٢ تحقيق الشيخ علي محمد معوض وآخرين – ط – الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

(٤) ينظر: زاد المسير ص٧٠٩.

وتربية لاستحالة صدوره عنهم ... فكأنهم قالوا: إن صَدَرَ عَنّا إفسادٌ كان مجيئنا لذلك، مريدين به تقبيح حاله، وإظهار كمال نزاهتهم عنه)([1])

(وإنما حكموا بعلمهم ذلك؛ لأنّ العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة، وإنما لم يكتفوا بنفي الأمرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزامًا للحجة عليهم، وتحقيقًا للتعجب المفهوم من تاء القسم)([2])

والمقصود بأحوالهم الشاهدة ما رُوِيَ من أنهم رَدُّوا البضاعة التي وجدوها في الطعام، وتَحَرَّجُوا من أكل الطعام بلا ثمن، وأنهم كانوا قد اشتهروا بمصر بالصلاح والتعفف، وكانوا يجعلون الأكمة في أفواه إبلهم لئلا تنال زروع الناس.([3])، وهذا يدلّ على أنّ المقصود بالإفساد هو عموم الإفساد، وليس نوعًا من أنواعه.

وأكّدوا نفي التهمة التي اتُّهِمُوا بها بالقَسَم وباللام، فقالوا: (تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ)، وجاءت التاء في (تالله)؛ لأنها تكون فيها التعجب غالبًا، كأنهم عجبوا من رميهم بهذا الأمر، مع ما شاهده الناسُ من أحوالهم، وإنما لم يكتفوا بنفي الأمرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزامًا للحجة

(١) إرشاد العقل السليم ٢٩٥/٤، روح المعاني ٢٦/١٣، ٢٧.

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٩٥/٤، روح المعاني ٢٧/١٣، وذكر الطاهر بن عاشور أنّهم حكموا بعلمهم ذلك؛ لأنهم كانوا وَفَدُوا على مصر مرة سابقة واتُّهموا بالجوسسة، فتبينت براءتهم بما صدقوا يوسف – عليه السلام – فيما وصفوه من حال أبيهم وأخيهم، ولذا ذهب إلى أنهم نفوا عن أنفسهم الاتّصاف بالسرقة بأبلغ مما نفوا به الإفساد عنهم، وذلك بنفي الكون سارقين دون أن يقولوا: وما جئنا لنسرق، لأنّ السرقة وَصْفٌ يُتعيّر به، وأما الإفساد الذي نفوه، أي: التجسس فهو مما يقصده العدوّ على عَدوّه فلا يكون عارًا، ولكنه اعتداء في نظر العدوّ. ينظر: التحرير والتنوير ٢٩/١٣/٧.

(٣) ينظر: جامع البيان ١٨١/١٦، ١٨٢، معاني القرآن، للفراء ٥١/٢، معاني القرآن، للنحاس ٤٤٧/٣، المحرر الوجيز ١٢١/٥، معالم التنزيل ٢٦١/٤، البحر المحيط ٣٢٧/٥، إرشاد العقل السليم ٢٩٥/٤، اللباب ١٦٥/١١.

عليهم، وتحقيقًا للتعجب المفهوم من تاء القسم، قال الرماني: لأنها لما كانت نادرة في أدوات القسم جُعلت للنادر من المعاني، والنادرُ من المعاني يُتَعجب منه.(١)

والمراد بالأرض – هنا – أرضُ مصر.(٢)

مصاحبة الإفساد في الأرض للسرقة:

هذه المصاحبة تفيد أنّ السرقة نوع من أنواع الإفساد في الأرض، وفي ذلك ترهيب من الوقوع فيها، ويلاحظ أنهم نَفَوْا عن أنفسهم السرقة بعد نفي الإفساد في الأرض وذلك لعدة أمور، منها:

أولاً: أنّ السّرقة هي التُّهْمة التي وُجّهت إليهم.

ثانيًا: لأنّهم إذا نَفَوْا عن أنفسهم الإفساد على وجه العموم يكون نفي السّرقة بعده من باب التأكيد؛ لمجيئه على سبيل ذكر الخاصّ بعد العام، فيكون ذلك أدْعى لتصديقهم في نفي التهمة عنهم.

ثالثًا: للإشارة إلى أن السّرقة من الأخلاق المذمومة التي لا تليق بهم، فهم لم يفعلوها فيما مضى فكيف يقعون فيها الآن؟! قال الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ): (ثم أكّدوا هذه الجملة التي أقسموا بالله عليها بقولهم: (وَمَا كُنَّا سارقين) لزيادة التبرّي مما قرفوهم به، والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة والرذيلة الشنعاء).(٣)

المطلب العاشر: الإفساد في الأرض والعُثُوّ فيها

(١) ينظر: الكشاف ٣٠٨/٣، البحر المحيط ٣٢٧/٥، روح المعاني ٢٧/١٣، نظم الدرر ١٧١/١٠، إرشاد العقل السليم ٢٩٥/٤.

(٢) ينظر: معالم التنزيل ٢٦١/٤، بحر العلوم ١٧١/٢، فتح القدير ص٧٠٦، التحرير والتنوير ٢٩/١٣/٧.

(٣) فتح القدير ص٧٠٦.

اقترن النَّهْيُ الإفساد في الأرض بالعُثُوِّ فيها في خمسة مواضع من القرآن الكريم، جاءت إحداها نهيًا لبني إسرائيل، وجاءت الثانية على لسان نبيّ الله صالح – عليه السلام – حينما كان يأمر قومه (ثمود) بعدم الاعتداء على الناقة، ويُذَكّرهم بنعم الله عليهم، وجاءت المواضع الثلاثة الأخيرة على لسان نبيّ الله شعيب – عليه السلام – حينما كان يأمرهم بعبادة الله – عزّ وجلّ – وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وألا يبخسوا الناس أشياءهم.

أولاً: الموضع الأول:

قال تعالى: (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) [البقرة: ٦٠].

والمعنى: (يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى، عليه السلام، حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حَجَر يُحمل معكم، وتفجيري الماء لكم منه من ثنتي عشرة عينًا، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المنّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سَعْي منكم ولا كَدّ، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك، (وَلا تَعْثَوْا فِي الأرْضِ مُفْسِدِينَ) ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها).(١)

ويلاحظ أنّ إنعام الله – عزّ وجلّ – عليهم وإحسانه إليهم كان جزيلاً، حيث لم يُقَيَّد عليهم بزمان ولا مكان ولا مقدار من مأكول أو مشروب، وذلك يستدعي التبسط في المآكل والمشارب، الذي تنشأ عنه القوة الغضبية، والقوّة الاستعلائية؛ لذا نهاهم الله – عزّ وجلّ – عما يمكن أن ينشأ عن ذلك، وهو الإفساد، حتى

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٨٧/١.

لا يقابلوا تلك النعم بما يَكْفرها، وهو الإفساد في الأرض.([1])، وهذا يوضح سِرّ النهي عن الإفساد في الأرض عقب التذكير بالنعم.

وقبل الحديث عن المصاحبة بين العُثُوّ في الأرض (أو العُثِيّ أو العِثِيّ، وكلّ هذا قد وَرَدَ) والإفساد فيها، نقف أولاً مع بيان المعنى اللغوي لقوله تعالى: (وَلَا تَعْثَوْا).

معنى (وَلَا تَعْثَوْا):

أ- عند اللغويين:

يقال: (عَثَا في الأرض يَعْثُو: أفسد. وكذلك عَثِيَ بالكسر يَعْثَى)([2])، وذكر أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) – في معرض الفرق بين العُثُوّ والفساد – أنّ العُثُوّ: كثرةُ الفساد، وأصله من قولهم: ضَبُعٌ عَثْوَاء: إذا كثر الشعر على وجهها.([3])

وذهب الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) إلى أنّ عَثِيَ يَعْثَى عِثِيًّا وعَثَيانًا بمعنى: أفسد، أما عَاثَ يَعِيثُ عَيْثًا، فمعناها: أَسْرَعَ في الفسادِ ([4])، ومعنى ذلك أنّ عَثِيَ وعَاثَ صيغتان لكل منهما معنًى مستقلّ، وليست إحداهما مقلوبةً من الأخرى.

لكن ذهب الكسائي (ت ١٨٩هـ) إلى أنّ قولهم: عَاثَ في البلاد، وعَثَا بمعنى واحد، وهو: أفْسَدَ، وأنّ عَثِيَ يَعْثَى – بكسر عين الماضي وفتح

(١) ينظر: البحر المحيط ٣٩٣/١، روح المعاني ٢٧٢/١.
(٢) الصحاح ٢٤١٨/٦ (ع ث ا)، وينظر: المصباح ص٣٩٣ (ع ث ا).
(٣) ينظر: الفروق اللغوية ص٢١٣.
(٤) ينظر: العين ٢٣١/٢ (ع ث ي)، (ع ي ث).

المضارع – أفصح، واستشهد بقول الله تعالى: (وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ).(١)

وذكر الأزهريّ أربع لهجات في الكلمة التي معنا، وهي: الأولى: عَثِي يَعْثَى عُثُوًّا وهو أشد الفساد، الثانية: عَثَا يَعْثُو، مثل: سَمَا يَسْمُو، قال ذلك الأخفش وغيره، الثالثة: عَاثَ يَعِيثُ(٢)، الرابعة: عَثَا يَعْثَى، حكاها عن ابن بُزُرج وعقّب عليها بأنّ: عَثِيَ يَعْثَى (لهجة الحجازيين) هي اللغة الجيّدة؛ لأنّ فَعَل يفعَل لا يكون إلا مما ثانيه أو ثالثه أحد حروف الحلق.(٣)

وذكر الزَّبيديُّ (ت ١٢٠٥هـ) أربع لهجات – أيضًا – في هذه الكلمة، اتفق في ثلاثة منها مع الأزهريّ، وانفرد كلٌّ منهما بواحدة، فأما التي انفرد بها الأزهري فهي: عَاثَ يَعِيثُ، وأما التي انفرد بها الزَّبيديُّ فهي: عَثَى يَعْثِي كرَمَى يَرْمِي، ونَصَّ على أنّ اللهجات الأربعة التي ذكرها معناها: أفْسَدَ أشَدَّ الإفساد، ومن إحدى اللغات قوله تعالى: (وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)، ثم ذكر الرأي القائل بأنّ عَثا يَعْثَى مقلوب عن عاثَ يَعِيثُ.(٤)

(١) ينظر: ما تلحن فيه العامة، للكسائي ص١٣٦ تحقيق د. رمضان عبد التواب – ط – الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٢م – الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة – دار الرفاعي بالرياض. وينظر: معاني القرآن، للكسائي ص٧١ أعاد بناءه وقدم له د. عيسى شحاته عيسى الناشر دار قباء بالقاهرة. – ١٩٩٨م.

(٢) وقال عن هذه اللهجة: وتفسيره في بابه، لكنه في بابه نقل قول الخليل بن أحمد فقال: (قال الليث: العَيْثُ: مصدر عَاثَ يَعِيثُ، وهو: الإسراعُ في الفساد). تهذيب اللغة ١٥٢/٣ (ع ا ث).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة ١٥٠/٣، ١٥١، اللسان ٢٨١١/٤ (ع ث ا).

(٤) ينظر: تاج العروس ٥٣٥/٣٨ (ع ث و).

وذهب ابن دريد (ت ٣٢١هـ) إلى أنّ عَثَا يَعْثُو، وعَاثَ يَعِيثُ، وعَثِيَ يَعْثَى بمعنًى واحد، وأنّ قولَ اللّه جلّ وعزّ: " ولا تَعْثَوا في الأرض مفسِدين " من عَثِيَ يَعْثَى.(١)

وذهب ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) إلى أنّ العين والثاء والحرف المعتلّ كلمةٌ تدلُّ على فَساد، وأنّ عَثَا يَعْثُو، وعَثِيَ يَعْثَى، وعَاثَ يَعِيثُ بمعنًى واحد.(٢)

وذكر أبو هلال العسكري أنّ (عَاثَ يَعِيثُ لغةٌ، وعَثَا يَعْثُو أفصح اللغتين).(٣)

وحكى ابن سيده (ت ٤٥٨هـ) عن كراع النمل (ت بعد ٣٠٩هـ) أن عَثا يَعْثَى مقلوب من عاثَ يَعِيثُ(٤)، وذهب إلى أنّ عاثَ يَعِيثُ عَيْثًا وعُيُوثًا وعَيَثَانًا بمعنى: أفْسد وأخذ بغير رفق، ونقل عن اللحياني (ت بعد ٢٠٧هـ) أنّ عَثِيَ لغة أهل الحجاز وهي الوجه. وعاثَ لغة بني تميم، وأنّ بني تميم يقولون: (ولا تَعِيُثوا في الأرْض).(٥)، وإذا كان بين عَثَا وعَاثَ قَلْبٌ مكانيّ فهما بمعنًى واحد.

وذهب الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) إلى وجود فرق بين الصيغتين فقال: (العَيْثُ والعِثِيُّ متقاربان، نحو: جَذَبَ وجَبَذَ، إلا أنّ العَيْثَ أكثر ما يقال في الفساد الذي يُدرك حِسًّا، والعِثِيّ فيما يُدرك حُكْمًا).(٦)

وبعد أن ذكر الدكتور محمد حسن جبل بعض المعاني الحسية للتركيبين (عثو/ عثى)، ومنها قولهم: العُثْوَة: حُفُوفُ شَعَر الرأس ... وبُعْدُ عهده بالمُشْط، وقولهم: شابَ عُثَى الأرض: هاجَ نَبْتُها، أي: يبس واصفرّ، ذهب إلى أن

(١) ينظر: جمهرة اللغة ١٠٣٥/٢ (ع ث ا)، وينظر: ٤٢٧/١، ٤٢٨، ١٢٥٥/٣.
(٢) ينظر: مقاييس اللغة ٢٣٠/٤ (ع ث ى).
(٣) الفروق اللغوية ص٢١٣.
(٤) ينظر: المحكم ٢٣٠/٢ (ع ث ي)، وينظر: تاج العروس ٥٣٥/٣٨ (ع ث و).
(٥) ينظر: المحكم ٢٣٠/٢ (ع ي ث).
(٦) المفردات في غريب القرآن ص٤١٨ (ع ث ي).

المعنى المحوري عبارة عن: تَشعُّث وجَفاف أو هَيْج كالموت لما شأنه أنْ يكون غضًّا مستوي النِّبْتَة مستقيمها، كالشعر والنبت الموصوفين، **ومن جفاف النبت وهو مَوْتٌ، والتَّشَعُّث وهو قُبْحٌ، أُخذ معنى الفساد**، واستنبط من عدم ورود هذا التركيب في القرآن الكريم إلا في قوله تعالى: (وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)، التي تكررت خمس مرات أنّ هذا يؤكد التلازم بين العُثُوّ والفساد.([1])

خلاصة ما سبق:

يمكن أن نلخص ما سبق فيما يلي:

أولاً: عَثَا يَعْثُو، وكذلك عَثِيَ بالكسر يَعْثَى معناه: أفسد، أوْ أفسد أشدّ الإفساد، وممن ذهب إلى ذلك: الخليل بن أحمد، وأبو منصور الأزهري، والجوهري، والزَّبيديّ، أو: كثرة الفساد، كما ذكر أبو هلال العسكري.

ثانيًا: فرّق الخليل بين عَثِيَ يَعْثَى، وعَاثَ يَعِيثُ، فالأولى بمعنى: أفسد، والثانية بمعنى: أسرع في الفساد.

ثالثًا: ذهب كراع النمل إلى أنّ عَثا يَعْثَى مقلوب من عاثَ يَعِيثُ، حكى ذلك ابن سيده ولم يعترض عليه، وذكره الزَّبيديّ، كما أن عبارة ابن دريد وابن فارس تفيد ذلك، فقد ذكرا أنّ عَثَا يَعْثُو، وعَاثَ يَعِيثُ، وعَثِيَ يَعْثَى بمعنًى واحد.

رابعًا: فَرَّقَ الراغبُ الأصفهانيُّ بين العَيْث والعِثِيّ، رغم اعترافه بأنهما متقاربان، فالعَيْثَ أكثر ما يقال في الفساد الذي يُدرك حِسًّا، والعِثِيّ فيما يُدرك حُكْمًا.

خامسًا: ذكر اللغويون خمس لهجات هي: عَثِي يَعْثَى عُثُوًّا، وعَثَا يَعْثُو، وعَاثَ يَعِيثُ، وعَثَا يَعْثَى، وعَثَى يَعْثِي.

(١) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل /١٤٠٤، ١٤٠٥ (عثو/ عثى).

سادسًا: نسب اللحياني الصيغة: عَثِيَ إلى أهل الحجاز، وقال: وهي الوجه، أي: الجيدة – كما وَرَدَ عند الأزهري – أما الصيغة: عَاثَ فنسبها اللحياني إلى بني تميم.

ب- عند المفسرين:

يرى بعض المفسرين أنّ عثى مقلوب عن عاث، حيث قالوا: (وَالْعَيْثُ: أَشَدُّ الْفَسَادِ يُقَالُ: عَثَى يَعْثِي عَيْثًا، وَعَثَا يَعْثُو عَثْوًا، وَعَاثَ يَعِيثُ عَيْثًا).(١)

وذهب ابن عادل إلى أنّ "عَاثَ" ليس مقلوبًا من "عَثِيَ" لتفاوت معنييهما، ثم أتبع ذلك بقوله: ويحتمل ذلك، ثم اختص كل واحد بنوع.(٢)

وذكر ابن جرير الطبري أنّ معنى (وَلَا تَعْثَوْا): أي: (لا تطغوْا، ولا تسعوْا في الأرض مفسدين)

وقال الزجاج (ت ٣١١هـ): (والعَثْوُ: أشَدّ الفساد).(٣)

واقتصر النحاس (ت ٣٣٨هـ) على قوله: (وهو منْ عَثِيَ يَعْثَى).(٤)

وذهب الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) إلى أنّ العثِيّ معناه: أشدّ الفساد، ومعنى (وَلَا تَعْثَوْا): أي: لا تتمادَوْا في الفساد في حال فسادكم.(٥)

وذكر ابن عطية (ت ٥٤٢هـ) أنّ معناها: (ولا تُفْرِطُوا في الفساد).(٦)

ونقل الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) أنّ العِثِيّ عند بعض المحققين معناه: (مجاوزة الحدّ مطلقًا فسادًا كان أوْ لا، فهو كالاعتداء، ثم غلب في الفساد)(٧)، ومعنى

---

(١) معالم التنزيل ١/١٠٠، وينظر: جامع البيان ٢/١٢٣، بحر العلوم ١/١٢٣، المحرر الوجيز ١/٢٢٧، الجامع لأحكام القرآن ١/٤٢١، البحر المحيط ١/٣٨٩.

(٢) ينظر: اللباب ٢/١١٢.

(٣) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج ١/١٤٢.

(٤) إعراب القرآن، للنحاس ١/٢٣٠.

(٥) ينظر: الكشاف ١/٢٧٥.

(٦) المحرر الوجيز ١/٢٢٧.

(٧) روح المعاني ١/٢٧٢.

ذلك أنّ إطلاق العِثِيّ على الفساد من باب تخصيص العام، ويدخل هذا في باب التطور الدلالي، كما أنّ قوله: مجاوزة الحدّ مطلقًا، قريبٌ من معنى الطغيان الذي ذكره ابن جرير الطبري، ومن معنى التمادي الذي ذكره الزمخشري، ومن معنى الإفراط الذي ذكره ابن عطية.

وذهب البقاعيُّ إلى أنّ العُثُوّ والعُثِيّ بمعنى واحد، لكنه حاول تلمّس فرق بينهما فقال عن معنى: (وَلَا تَعْثَوْا) : (من العُثُوّ وهو: أشد الفساد، وكذلك العِثِيّ إلا أنه يشعر هذا التقابل بين الواو والياء، أنّ العُثُوّ: إفساد أهل القوى بالسطوة، والعِثِيّ: إفساد أهل المكر بالحيلة).([1])، ثم ذكر أنّ العِثِيّ والعَيْث بمعنى: الإسراع في الفساد، لكن الفرق الذي ذكره البقاعيّ لا دليل عليه من اللغة.

وذكر الشيخ رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) أنّ معنى: (وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (أَيْ: لَا تَنْشُرُوا فسادَكُم في الأرض وتكونوا في الشُّرور قُدْوة سيّئة للناس، يقال: عَثَا إِذَا نَشَرَ الشَّرَّ والفساد وأثارَ الخُبْثَ، فهو أخَصُّ من مُطْلَق الإفساد)([2])، لكني لم أعثر على هذا المعنى فيما رجعت إليه من كتب اللغة.

(١) نظم الدرر ١/٤١٠.
(٢) تفسير المنار ١/٢٧١.

مصاحبة العُثُوّ للإفساد:

يتضح مما سبق أن المفسرين يرون أنّ العُثُوّ معناه: أشَدُّ الفساد، أو الإفراطُ فيه والتمادي والطغيانُ الناتج عن مجاوزة الحدّ، وهذا المعنى الأخير قريب مما ذكره أبو هلال العسكري سابقًا، حيث فَسّر العُثُوّ بكثرة الفساد

واتفقوا على أن إعراب كلمة (مُفْسِدِينَ): حالٌ، لكنهم اختلفوا في نوعها، فذهب كثير منهم إلى أنها مؤكدة لعاملها(١)؛ لأن معناها قد فُهِمَ من عاملها، وعلَّلُوا تكرار المعنى بأنه تأكيدٌ لاختلاف اللفظ(٢)، وذهب آخرون إلى أنّ الحالَ – هنا – مُبَيِّنة، وليست مؤكّدة لعاملها، فكلام الزمخشري يوحي بذلك، حيث ذهب إلى أنّ معنى (وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ): (لا تتمادَوْا في الفساد في حال فسادكم، لأنهم كانوا متمادين فيه)(٣)، فالزمخشري جعل (المنهيّ عنه هو

(١) وهي التي يُستفاد معناها من صريح لفظ عاملها، والأكثر أم تخالفه لفظًا، كما في الآية التي معنا، وقد توافقه، كما في قوله تعالى: (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً) [النساء: ٧٩]، والقول بإثبات الحال المؤكدة هو مذهب الجمهور، وذهب المبرد، والفراء، والسهيلي إلى إنكارها، وقالوا: لا تكون الحال إلا مبينة، إذ لا يخلو من تجديد فائدةٍ ما عند ذكرها. ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي ٢٤٥/٢، ٢٤٦ تحقيق أحمد شمس الدين – ط – الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لبدر الدين المرادي ٧١٦/٢ شرح وتحقيق د. عبد الرحمن علي سليمان – ط – الأولى ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٨م – الناشر دار الفكر العربي، المساعد على تسهيل الفوائد، لبهاء الدين بن عقيل ٤٠/٢، ٤١ تحقيق د. محمد كامل بركات – ط – الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م – ط – جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام الأنصاري ٣٤٢/٢، ٣٤٤ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – منشورات المكتبة العصرية – بيروت.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٢٢٧/١، الجامع لأحكام القرآن ٤٢١/١، البحر المحيط ٣٩٣/١، اللباب ١١٣/٢، روح المعاني ٢٧٢/١، التحرير والتنوير ٥٢٠/١.

(٣) الكشاف ٢٧٥/١.

الدوام على الفعل([1])، وكأنه يأبى صحة الحال المؤكدة للجملة الفعلية، فحاول المغايرة بين (لَا تَعْثَوْا) وبين (مُفْسِدِينَ) تجنبًا للتأكيد)([2])، كما أجاز هذا الرأيَ ابنُ عادل، فقد ذكر الرأيَ الأوّلَ ثم أتبعه بقوله: (ويحتمل أن تكون حالًا مُبينة؛ لأنّ الفساد أعمّ، والمعنى أخصّ)([3])، وذهب إلى ذلك – أيضًا – الألوسي فقال: (العِثِيّ عند بعض المحققين: مجاوزة الحدّ مطلقًا فسادًا كان أوْ لا فهو كالاعتداء، ثم غلب في الفساد، و "مُفْسِدِينَ" على هذا حالٌ غير مؤكدة، وهو الأصل فيها، كما يدلّ عليه تعريفها)([4])، ومن هؤلاء – أيضًا – الإمام محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤هـ)، يفهم ذلك من قوله: (العُثُوُّ، من عَثِيَ يَعْثَى بمعنى: أفسد، أوْ بمعنى: أضاع كل ما فيه من خير، فاعتدى على حق غيره، فيعثون يشمل كل فعل يؤدى إلى الاضطراب والإفزاع ومنع الخير، ويتقارب من معنى العبث، ويكون قوله تعالى : "مُفْسِدِينَ" ليس تكرارا لِلَفْظ "لَا تَعْثَوْا" أو تأكيدًا، إنما هو لبيان العُثُوّ، وهو القصد إلى الإفساد، فمفسدين معناها: قاصدين إلى الإفساد).([5])

مما سبق يتبين لنا أنّ العلماء الذين يرون أنّ العُثُوّ في الأرض بمعنى الإفساد فيها، ذهبوا إلى أنّ الحالَ – هنا – مؤكِّدةٌ، والذين يرون فرقًا – ولو طفيفًا بين اللفظين – ذهبوا إلى أنّها مُبَيِّنَةٌ، وهذا هو مذهب والفراء، والمبرد، والسهيلي فقد أنكروا الحال المؤكّدة، وقالوا: لا تكون الحال إلا مُبَيِّنَةً، إذ لا يَخْلو

(١) نقل الألوسي قول الزمخشري وعلق عليه بقوله: (والمقصد النهي عما كانوا عليه من التمادي في الفساد وهو من أسلوب (لاَ تَأْكُلُواْ الربا أضعافا مضاعفة) [آل عمران: ١٣٠] وإلا فالفساد – أيضًا – مُنْكَرٌ مَنْهِيٌّ عنه، وفيه أنه تكلف مستغنى عنه بما ذكرنا). روح المعاني ٢٧٢/١.
(٢) التحرير والتنوير ٥٢٠/١.
(٣) اللباب ١١٣/٢.
(٤) روح المعاني ٢٧٢/١.
(٥) زهرة التفاسير ٢٤٨/١.

الكلام من تجديد فائدةٍ ما عند ذكرها(١)، ولا يعني هذا أنّ العلماء السابقين الذين رجَّحُوا أن تكون الحال مُبَيِّنَةً ينكرون الحال المؤكِّدة.

وعلى العموم فالثابت يقينًا أنّ المواضع القرآنية الخمسة التي وَرَدَ العُثُوّ فيها جاء مصاحبًا للإفساد في الأرض، وهذا يدلّ دلالة قاطعة على ارتباط العُثُوّ في الأرض بالإفساد ارتباطًا قويًّا.

وإذا كان بعض العلماء – كما سبق – فَسَّرُوا العُثُوّ بأنه: أشدّ الفساد، أو الطغيان في الإفساد، أو الإفراط فيه، فلعل هذا الارتباط يوحي بأنّ هؤلاء القوم – قوم موسى، كما في الآية التي معنا، أو قوم صالح أو قوم شعيب، كما في الآيات التالية – يكونون – في حال إفسادهم – متجاوزين كُلَّ حدود الإفساد المتعارف عليها بين الناس، فكأنّ الإفساد بهذه الصفة أصبح مرتبطًا بهم، وملازمًا لهم، فنهاهم الله – عزّ وجلّ – عما هم به متصفون، حال وقوعهم في الإفساد، وليس المقصودُ النهيَ عن التجاوز في الإفساد دون الإفساد نفسه، ولكنه – والله أعلم – نَهْيٌ عن الحالة التي يكونون عليها.

وعلل البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) هذه المصاحبة بقوله: (وفائدة الحال: إخراج ما يقصد به الإصلاح، كما فعله الخضر – عليه الصلاة والسلام)(٢)، أي: من خرق السفينةِ وقتلِ الغلام.

أما البقاعي فعلّلَ هذا الارتباط أو هذه المصاحبة بين العُثُوّ في الأرض والإفساد فيها بقوله: (وإتباع ما معناه الفساد قوله: (مُفْسِدِينَ) دليلٌ على أنّ المعنى: ولا تُسرعوا إلى فعل ما يكون فسادًا قاصدين به الفساد، فإنّ العِثِيّ

(١) ينظر: همع الهوامع، للسيوطي ٢/٢٤٥.

(٢) أنوار التنزيل ١/٤٦٦، وقوله: (وفائدة الحال) أي الفائدة من ذكر قوله (مُفْسِدِينَ) بعد قوله: (وَلَا تَعْثَوْا)، وينظر: إرشاد العقل السليم ١/١٠٦، ٤/٢٣٢.

والعَيْث الإسراعُ في الفساد... وليس المراد بالإسراع التقييد، بل الإشارة إلى أنّه لملاءمته للهوى لا يكون إلا كذلك).([1])

ثانيًا: الموضع الثاني:

قال تعالى: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) [الأعراف: ٧٣، ٧٤].

والمعنى: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحًا، ليس أخا في الدين، وإنما من القبيلة أو من جنسهم البشري لا من الملائكة، فقال صالح ثمود: يا قوم اعبدوا اللّه وحده لا شريك له، فما لكم من إله تعبدونه غيره، قد جاءتكم حُجّةٌ وبرهانٌ على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية، فقال لهم: (هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً) أي أنها دليل قاطع على صدق نبوتي، ثم أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض اللّه ما شاءت، وألا يتعرضوا لها بسوء في نفسها ولا في أكلها؛ لأنهم إنْ فعلوا ذلك أصابهم عذاب أليم، ثم ذكّرهم بنعم اللّه عليهم وبوجوب شكرها وعبادته تعالى فقال: (وَاذْكُرُوا) أي تذكروا نعم اللّه وأفضاله وإحسانه عليكم، إذ جعلكم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران وقوة البأس، وأورثكم أرضهم وديارهم، وأسكنكم منازلهم، تتخذون من سهولها قصورًا عالية، بما ألهمكم من حذق الصناعة، والاستفادة من التراب بصنع اللَّبِن والآجُرّ ومن سهولة الأرض، وتنحتون من الجبال أحجارًا تبنون بها بيوتًا محصنة، تسكنونها في الشتاء لقوتها، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف،

(١) نظم الدرر ١/٤١٠.

وتسكنون في السهول بقية الفصول للزراعة، فتذكّروا هذه النعم الكثيرة العظيمة، واشكروا اللّه عليها بتوحيده وإفراده بالعبادة، وإياكم أن تفسدوا في الأرض، بأي نوع من أنواع الفساد.

ارتباط العُثُوّ في الأرض والإفساد فيها بكُفْر النِّعَم:

ومن هذا يتضح لنا أنّ النهيَ عن العُثُوّ في الأرض – هنا – جاء عقب التذكير بالنعم، كما كان الحال في قصة سيدنا موسى – عليه السلام – مع قومه، وفي هذا دليل على الارتباط القويّ بين الكُفْر بالنعمة والإفساد في الأرض، إذ الأوّلُ يتبعه الثاني لا محالة، والواقع الذي حكته لنا القصتان (موسى مع قومه، وصالح مع قومه) يؤيد ذلك، ويؤكّده.

ثالثًا: المواضع الثلاثة الأخيرة:

قال تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) [هود: ٨٤، ٨٥].

قال تعالى: (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) [الشعراء: ١٧٦ : ١٨٣].

قال تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) [العنكبوت:٣٦].

ونقف أولاً مع بيان المعنى العامّ، ونكتفي ببيان معنى الموضع الأول من هذه المواضع الثلاثة؛ لأن معناه – في العموم – يشتمل على معنى الموضعين الأخيرين.

والمعنى أن الله تعالى يخبرنا بأنه أرسل إلى أهل مدين أخاهم في القبيلة شُعَيْبًا الذي كان من أشرفهم نسبًا، فأَمَرَهُم بالتوحيد الذي هو أصل الإيمان، ثم نهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، فقال: (وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ)، ثم أمرهم بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، وهو أمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيهًا على أنه لا يكفيهم الكفّ عن تعمدهم التطفيف، بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها، ثم نهاهم عن النقص في كل الأشياء، وذلك تعميم بعد تخصيص، فإنه أعمّ من أن يكون في المقدار، أو في غيره، ثم نهاهم عن العُثُوّ في الأرض فسادًا، والمراد: النهي عن الفساد كلِّه، كما يدلّ عليه قوله: (فِي الْأَرْضِ) المقصود منه تعميم أماكن الفساد، وقوله: (مُفْسِدِينَ) حالٌ مؤكّدة لعاملها مثل التوكيد اللفظي، مبالغة في النهي عن الفساد.([1])

(١) ينظر: البحر المحيط ٢٥٣/٥، أنوار التنزيل ٤٦٦/١، إرشاد العقل السليم ٢٣١/٤، ٢٣٢، التحرير والتنوير ١٣٦/١٢/٦ وما بعدها.

المطلب الحادي عشر
المصاحبة بين الإفساد في الأرض والتطفيف في الكيل والميزان

مما سبق يتضح لنا سِرّ المصاحبة بين الإفساد في الأرض والأمر بإيفاء الكيل والميزان وعدم بخس الناس حقوقهم، فالتّطفيفُ في الكيل والميزان، وبَخْسُ الناس حقوقهم، من الإفساد في الأرض، فالإنسان السويّ إذا عرف أنّ هذا من الإفساد في الأرض كان ذلك أدْعى لاجتنابه، والكفّ عنه، والنفور منه، بل التنفير منه، بخلاف ما إذا نُهِيَ عنه في الوقت الذي يجد فيه مصلحة عاجلة تعود بالنفع عليه، متمثلة في الكسب الوفير، بسبب التطفيف وبخس الحقوق، فلعل ذلك الكسب يلهيه عما فيه من سوء، يتمثل في إيقاع الضرر بالآخرين، يقول العلامة الطاهر بن عاشور – رحمه الله تعالى – : (وقد حصل النهي عن الأعمّ بعد النهي عن العامّ، وبه حصلت خمسة مؤكدات: بالأمر بعد النهي عن الفساد الخاص، ثم بالتّعميم بعد التخصيص، ثم بزيادة التعميم، ثم بتأكيد التعميم الأعمّ بتعميم المكان، ثمّ بتأكيده بالمؤكِّد اللفظي).([1])

(١) التحرير والتنوير ١٣٨/١٢/٦.

المطلب الثاني عشر: الفساد والطغيان في البلاد

قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ) [الفجر: ٦: ١٢]

اقترن الفساد في الآية السابقة بالطغيان في البلاد، ذلك الطغيانُ الذي وقع من عادٍ، وثمود، وفرعون ومَنْ عاونوه(١)، وقبل الحديث عن المصاحبة بين الطغيان والفساد نقف وقفة نبين فيها المعنى اللغوي للفعل: طَغَى.

أولاً: المعنى اللغوي للفعل (طغى):

يقال: طَغَا يَطْغَى طَغْيًا، ويَطْغو طُغْيانًا، وطَغِيَ يَطْغَى طَغًى، أي: جاوَز الحدّ، وكلُّ شيء يُجاوز القدْرَ فقد طَغَى، وطَغَى البحرُ: هاجت أمواجُه، وطَغَى الدَّمُ: تَبَيَّغَ(٢)، وطَغَى السَّيْلُ: إذا جاء بماءٍ كثير، والطَّغْيَةُ: المكان المُشْرف من الجبل، أي: أعلى الجبل، وكلُّ مكانٍ مرتفعٍ: طَغْوَةٌ.(٣)

---

(١) قال أبو حيان في إعراب الاسم الموصول من قوله تعالى: (الذين طغوا في البلاد): (الذين): صفة لعاد وثمود وفرعون، أو منصوب على الذم، أو مرفوع على إضمار هُمْ)، أي: في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم. البحر المحيط ٤٦٥/٨، وينظر: الكشاف ٣٧٠/٦، وأجاز الرازي، وابن الخطيب حسب ما نقل عنه ابن عادل، والطاهر بن عاشور أن يكون الضمير عائدًا على فرعون وقومه؛ لأنه يليه، وأن يكون راجعًا إلى جميع مَنْ تقدّم ذكرهم (عاد، وثمود، وفرعون)، وهذا القول الأخير رجحه الرازي وابن الخطيب. ينظر: التفسير الكبير ١٥٤/١١، اللباب ٣٢٢/٢٠، التحرير والتنوير ٣٢١/٣٠/١٥.

(٢) أي: هاج، وذلك حين تظهر حمرته في البدن. المحكم ٢٩/٦ (ب ي غ).

(٣) ينظر: العين ٤٣٥/٤، ٤٣٦ (ط غ و، ط غ ي)، تهذيب اللغة ١٦٧/٨، ١٦٨، الصحاح ٢٤١٢/٦ (ط غ ا)، المحكم ٨/٦ (ط غ ي)، اللسان ٢٦٧٨/٤ (ط غ ى)، المصباح ص٣٧٤ (ط غ ا)، تاج العروس ٤٩٢/٣٨ (ط غ ي).

وقال أبو هلال العسكري: (الطُّغْيان: مجاوزة الحَدّ في المكروه مع غلبةٍ وقَهْرٍ منه).(١)

وقال ابن فارس: (الطاء والغين والحرف المعتل أصلٌ صحيح منقاس، وهو: مجاوَزَة الحدِّ في العِصيان)(٢)

وذهب الدكتور جبل إلى أنّ المعنى المحوري للتركيب (طغو/ طَغَى): ارتفاع الشيء باستغلاظٍ وتجاوزٍ حتى يَغْشَى ويُغَطِّي ما حوله، وذَكَرَ أنّ كلّ ما في القرآن من التركيب فهو بمعنى التجاوز في غِلَظٍ وتَخَطٍّ للحقّ وعدوان.(٣)

فالطغيان مجاوزةٌ للحَدّ، تبعث عليه قُوّةٌ ومَنَعَةٌ مِنْ جُنْدٍ ورياسةٍ، أو وُفُور نِعْمةٍ عند الغفلة بالنعمة مالاً كانت أو رياسةً عن المُنْعم جَلّ وعلا؛ لذا قال بعض المفسرين عن معنى الفساد – هنا – إنه: المعاصي، وركوبُ ما حرّم الله عليهم(٤)، أو الكُفْرُ وسائرُ المعاصي، والتَّجَبُّرُ على أنبياء الله والمؤمنين،(٥) أو الجَوْرُ والأذى(٦)، أو القتلُ والمعصيةُ لله تعالى(٧)، أوْ أنّ (الفساد يتناول جميع أقسام الإثم، فمن عَمِلَ بغير أمر الله، وحَكَمَ في عباده بالظلم فهو مُفْسِدٌ).(٨)

ولعل هذا القول الأخير هو الأقرب للصواب.

ثانيًا: المصاحبة بين الطغيان في البلاد والفساد فيها

(١) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري ص٢٣٠.
(٢) مقاييس اللغة ٤١٢/٣ (ط غ ى)، وينظر: المفردات في غريب القرآن ص٣٩٧ (ط غ ى).
(٣) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل ١٣٣٢/٣، ١٣٣٣ (طغو/ طغى).
(٤) جامع البيان ٤١٠/٢٤.
(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٥٥/٩، التفسير الكبير ١٥٤/١١، معالم التنزيل ٤٢٠/٨، روح المعاني ١٢٤/٣٠.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٤٩/٢٠.
(٧) ينظر: زاد المسير ص١٥٤٧.
(٨) التفسير الكبير ١٥٤/١١، وينظر: اللباب ٣٢٢/٢٠.

يخبرنا ربنا – عزّ وجلّ – بأنّ عادًا وثمود وفرعون طَغَوْا في البلاد التي كانوا فيها، أي: تجاوزوا ما أباحه لهم ربهم، فأكثروا في البلاد المعاصي، وركوب ما حرّم الله عليهم، فأنزل الله بهم عذابَهُ، وأحلّ بهم نِقْمَتَهُ.(١)

مما سبق يتبين لما أنّ الفساد الذي كَثُر وقوعه في بلاد عاد وثمود وفرعون كان نتيجة طغيانهم، وثمرة تجاوزهم حدود الله – تعالى –، وقَهْرِهم العباد، وتغَلُّبِهم على البلاد؛ لذا ارتبط الفساد – هنا – بالطغيان وصَاحَبَهُ، يقول البقاعي: (ولما كان المراد بفرعون هو وجنوده؛ لأن الرأس يكنى به عن البدن، لأنه جماعة وبه قوامه، وصفه بوصف يجمع قوْمَه وجميعَ مَنْ ذُكر هنا فقال: (الذين) أي: فرعون وجنوده وكل من ذكر هنا من الكفرة من عاد وثمود وأتباعهم (طَغَوْا) أي: تجاوزوا الحدود (فِي الْبِلَادِ) أي التي ملكوها بالفعل وغيرها بالقوة (فَأَكْثَرُوا) عقب طغيانهم وبسببه (فِيهَا الْفَسَادَ) بما فعلوا من الكفر والظلم مما صار سنة لمن سمع به).(٢)

وعلَّلَ الطاهر بن عاشور مصاحبة الطغيان في البلاد لكثرة وقوع الفساد فيها بقوله: (لأنّ الطغيانَ يُجَرِّىء صاحبه على دحض حقوق الناس، فهو من جهة يكون قدوة سُوءٍ لأمثاله ومَلئهِ، فكل واحد منهم يَطْغَى على مَنْ هو دونه، وذلك فسادٌ عظيمٌ، لأنّ به اختلالَ الشرائع الإلاهيّة، والقوانين الوضعية الصالحة، وهو من جهة أخرى يُثير الحفائظ والضغائن في المطْغيّ عليه من الرعية، فيُضمرون السُّوء للطاغين، وتنطوي نفوسهم على كراهية ولاة الأمور، وتَرَبُّصِ الدوائر بها، فيكونُون لها أعداء غير مخلصي الضمائر، ويكون رجال الدولة متوجّسين منهم خيفة فيظنون بهم السوء في كل حال، ويَحْذَرُونهم، فتتوزع قوةُ الأمّةِ على أفرادها عوض أنْ تَتّحِدَ على أعدائها، فتصبح للأمة

(١) ينظر: جامع البيان ٢٤/٤١٠.
(٢) نظم الدرر ٢٢/٣٠.

أعداءٌ في الخارج وأعداءٌ في الداخل، وذلك يُفضي إلى فساد عظيم، فلا جرم كان الطغيانُ سببًا لكثرة الفساد).([1])

ثالثًا: بين الفساد والإفساد:

يلاحظ – هنا – أن القرآن الكريم عَبَّرَ بالفساد وهو يقع اسمًا لذلك الفعل البغيض، ومصدرًا للفعل الثلاثي اللازم: فَسَدَ، ولم يُعَبِّر بالإفساد، الذي هو مصدرٌ للفعل الرباعي المتعدي بالهمزة: أَفْسَدَ، الذي مرَّ بنا التعبير به كثيرًا – فيما سبق –، ولعل السّرَّ في ذلك يرجع إلى أنّ القرآن الكريم أراد الحديث – هنا – عن الفساد الذي هو اسم لذلك الفعل البغيض، ولم يُرد الحديث عن المصدر، تبغيضًا لشأنه، وتنبيهًا على خطره، وتهويلاً لآثاره المدمرة للأرض ومَنْ عليها وما عليها، بعدما أشار إلى فاعليه، ونسب وقوعه في البلاد – بكثرةٍ – إليهم، فهم الذين أكثروا منه في البلاد، وعَمَّ فيها بسبب طغيانهم، فَبَغَّضهم القرآنُ الكريمُ إلينا بسبب فعلهم، وفي هذا تبغيضٌ للفساد نفسه، وتحذيرٌ من الوقوع فيه، أو الرِّضَى به وأهله المفسدين في الأرض؛ لذا وجدنا القرآن الكريم يعبر بهذا الاسم (أي: الفساد) في موضع آخر، مشيرًا إلى ظهوره وانتشاره في الأرض بسبب أعمال الناس، وذلك قوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الروم: ٤١]، فالحديث – هنا – عن ظهورِ الفساد في الأرض برّها وبَحْرها([2])، وانتشارِه

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/١٥/٣٢١.

(٢) عرض الطبري رأيين في معنى البَرّ والبَحْر الواردَيْن في الآية، حيث ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالبَرّ: الفلوات، وبالبَحْر: الأمصار والقُرى التي على المياه والأنهار، وذهب آخرون إلى أن البَرّ: ظهر الأرض، الأمصار وغيرها، والبَحْر: البَحْر المعروف، ثم عقّب على ذلك بقوله: وأَوْلَى الأقوال في ذلك بالصواب أن الله تعالى ذِكْرُهُ، أخبر أن الفساد قد ظهر في البرّ والبَحْر عند العرب في الأرض القفار، والبَحْرُ بَحْران: بَحْرٌ مِلْحٌ، وَبَحْرٌ عَذْبٌ، فهما جميعًا عندهم بَحْر، ولم يُخصص جلّ = =ثناؤه الخبرَ عن ظهور ذلك في بَحْر دون بَحْر، فذلك على ما وقع عليه اسم بَحْر عَذْبًا كان أو مِلْحًا، إذا كان ذلك كذلك، دخل القرى التي على الأنهار والبحار. ينظر: جامع البيان

فيهما، ومصاحبته للبَرّ والبَحْر ليدلّ على عمومه وانتشاره، يقول الطاهر بن عاشور: (ودلّ قوله: " فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ " على أنه سوء الأحوال في ما يَنْتفع به الناسُ من خيرات الأرض برّها وبَحْرها)(١)، وارتباطه بما كسبت أيدي الناس هو ارتباط السبب بالمسبب عنه، أي: بسبب معاصيهم وذنوبهم فسدتْ أسبابُ دنياهم، ليذيقهم الله – تعالى – وَبَالَ بعض أعمالهم في الدنيا، قبل أن يعاقبهم بها جميعًا في الآخرة " لعلهم يرجعون" عما هم فيه.(٢)

ويجوز أن يكون المعنى: أنّ الله تعالى خلق العَالَمَ على نظام مُحكمٍ ملائمٍ صالحٍ للناس، فأحدث الإنسانُ فيه أعمالًا سيئة مفسدة، فكانت وشائجَ لأمثالها، فأخذ الاختلال يتطرق إلى نظام العالم، بما كسبته أيدي الناس، أي بسبب أعمالهم، وأعظمُ ما كسبته أيدي الناس من الأعمال السيئة الإشراكُ، وهو المقصود هنا وإن كان الحكم عامًا.(٣)

لذا نجد أن الله – عزّ وجلّ – أخبرنا في كتابه الكريم بأنه لا يحب الفساد، فقال تعالى عمّن صفته الإفساد في الأرض: (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) [البقرة: ٢٠٥]، كما أخبرنا –

١٠٨/٢٠، ١٠٩، زاد المسير ص١٠٩٦، ونقل ابن عطية عن الحسن بن أبي الحسن أنّ البَرّ والبَحْر: هما المعروفان المشهوران في اللغة، وعقب على ذلك بقوله: وهذا القول صحيح، وظهور الفساد فيهما هو بارتفاع البركات، ونزول رزايا، وحدوث فِتَن، وتغلّب عدوّ كافر، وهذه الثلاثة توجد في البَرّ والبَحْر. ينظر: المحرر الوجيز ٣٠/٧، ٣١. ونقل أبو حيان هذا القول دون أن ينسبه لابن عطية. ينظر: البحر المحيط ١٧١/٧، ونقله عن ابن عطية ونسبه له: البغوي في: معالم التنزيل ٢٧٤/٦، وابن عادل في: اللباب ٤١٩/١٥، ورجّحه القرطبي في: الجامع لأحكام القرآن ٤٠/١٤، والألوسي في: روح المعاني ٤٨/٢١، وذِكْرُ البقاعي له أولاً دليل على ترجيحه. ينظر: نظم الدرر ١٠٤/١٥.

(١) التحرير والتنوير ١١٠/٢١/١٠.

(٢) ينظر: البحر المحيط ١٧١/٧.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ١١١/٢١/١٠، ١١٢.

جلّ وعلا – بأنّه لا يُحِبُّ المُفسدين، فقال تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) [القصص: ٧٧]، لذا كان المفسدون في الأرض في مقابلة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) [ص: ٢٨]، تنبيهًا على حُسْن عاقبة الصالحين، وسوء عاقبة المفسدين ومآلهم.

وبمناسبة الحديث عن ظهور الفساد في الأرض نقف مع قول الله تعالى: **(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) [غافر: ٢٦].**

ففرعون مع ما كان عليه من عُتُوّ وتَجَبُّر لم يستطع أنْ يَصِفَ سيدنا موسى – عليه السلام – بالإفساد في الأرض، وكل ما استطاع قوله هو أن يَنْسِبَ إلى سيدنا موسى – عليه السلام – التَّسَبُّبَ في إظهار الفساد وانتشاره، أي: تغيير ما كانوا عليه من الديانة والعوائد حال ظهور دعوته وانتشارها(١)، (فسمى اللعينُ الصَّلاحَ – لمخالفته لطريقته الفاسدة – فسادًا، كما هو شأن كُلّ مُفْسِدٍ مع المُصْلحين).(٢)

المطلب الثالث عشر: مصاحبة الإفساد في الأرض للأفراد والجماعات

في القرآن الكريم وَرَدَ الإفسادُ في الأرض مرتبطًا بالأفراد والجماعات، حيث ارتبط بفرعون، وذلك عندما قال فرعونُ حين أدركه الغرق أنه آمن وأنه من المسلمين، رَدّ الله – عزّ وجلّ – عليه هذا القول، ولم يقبله منه فقال: (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) [يونس: ٩١]، وفي موطن آخر نجد قول الله – جلّ وعلا –: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) [القصص: ٤]، كما

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١١/٢٤/١٢٥.
(٢) نظم الدرر ١٧/٥١، ٥٢.

ارتبط الإفساد في الأرض بجماعة لها عقيدة معينة، كاليهود مثلًا، كما في قوله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) [المائدة: ٦٤]، أو المنافقين كما في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) [البقرة: ١١، ١٢]، وارتبط – كذلك – بالقَوْم(١)، فقد حكى القرآن الكريم دعاء سيدنا لوط – عليه السلام –: (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ) [العنكبوت: ٣٠].

وهذه المصاحبةُ أوْ هذا الارتباطُ يدلّ على أن الإفساد في الأرض يقع من فرد، كما يقع من جماعة لها عقيدة معينة، كما يقع من قومٍ، أي: ليس مرتبطًا بالأفراد دون الجماعات، ولا بالجماعات دون الأفراد، ولا بالرجال دون النساء، ولا بالنساء دون الرجال.

(١) قال الجوهري: (القَوْمُ: الرجال دون النساء، لا واحد له من لفظه. قال زهير: وما أدري وسَوف إخالُ أدري ... أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ، وقال تعالى: " لا يسخر قومٌ من قومٍ " ثم قال سبحانه: " ولا نساءٌ من نساءٍ "، **وربَّما دخل النساء فيه على سبيل التَّبَع؛ لأنّ قوم كلِّ نبيّ رجالٌ ونساء**). تاج اللغة وصحاح العربية ٢٠١٦/٥ (ق و م). وقال ابن الأثير عن معنى القوم الوارد في قول النبي – صلى الله عليه وسلم: (إنْ نَسَّانِي الشيطانُ شيئًا من صلاتي فلْيُسبِّحِ القومُ ولْيُصَفِّقِ النساء": **(القَوْم في الأصل: مصدرُ قَامَ، ثم غلب على الرجال دون النساء**؛ ولذلك قابَلَهُنّ به، وسُمُّوا بذلك لأَنهم قوّامون على النساء بالأُمور التي ليس للنساء أَن يَقُمْنَ بها). النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ١٢٤/٤ (ق و م) تحقيق محمود محمد الطناحي – ط – الأولى ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م – الناشر المكتبة الإسلامية.

المطلب الرابع عشر: سَبِيلُ المُفْسِدِين

ورد التركيب الإضافي (سبيل المفسدين) مرةً واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: **(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)** [الأعراف: ١٤٢].

السَّبيل في اللغة:

السَّبيلُ: الطّريقُ، يُذكّر ويُؤنّث، وجمعه: سُبُلٌ(١)، ونقل الفيومي (ت ٧٧٠هـ) عن ابن السكيت (ت٢٤٤هـ) أنّ جمع السَّبيل على التأنيث: سُبُولٌ، وعلى التذكير: سُبُلٌ وسُبْلٌ(٢)، وذكر الشيخ إسماعيل الحقي – في معرض الفرق بين الطريق والسبيل والصراط – أن (السَّبيل من الطُّرُق ما هو معتاد السلوك).(٣)

وذهب ابن فارس إلى أنّ (السّين والباء واللام أصلٌ واحد يدلُّ على إرسال شيءٍ من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، وعلى امتداد شيء)(٤)، وقريبٌ من هذا ما ذهب إليه الدكتور جبل حيث ذكر أنّ المعنى المحوري للجذر (سبل) هو: (امتدادٌ إلى أسفل مع اتصال، كالثياب الممتدة إلى الأرض... والسَّبيل: الطريق؛ لامتداده

---

(١) ينظر: العين ٢٦٣/٧، إصلاح المنطق ص٣٦١، جمهرة اللغة ٣٤٠/١، تهذيب اللغة ٤٣٦/١٢، المحيط في اللغة ٣٣٠/٨، الصحاح ١٧٢٤/٥، اللسان ١٩٣٠/٣، تاج العروس ١٦١/٢٩ (س ب ل).

(٢) ينظر: المصباح ص٢٦٥ (س ب ل) ولم أعثر على هذا في (إصلاح المنطق) والنصّ هناك: (والسَّبيلُ والطَّريقُ يُذَكّران ويُؤَنّثان، يُقال: الطّريقُ الأعظمُ والطّريقُ العُظْمَى، وقال الله جلّ وعزّ: " وإنْ يَرَوْا سَبيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً " وقال: " قُلْ هذِهِ سَبِيلِي"). إصلاح المنطق ص٣٦١.

(٣) الفروق، للشيخ إسماعيل الحقي ص١٤٣ – ط ١٣١٠هـ – مطبعة الشركة الصحافية العثمانية، وقال عن الطريق: كل ما يطرق طارق معتادًا كان أو غير معتاد، وقال عن الصراط: والصراط من السبيل: ما لا التواء فيه، أي: لا اعوجاج، بل يكون على سبيل القصد فهو أخصّ.

(٤) مقاييس اللغة ١٢٩/٣ (س ب ل).

متميزًا بين ما حوله من أرض موصلاً إلى مكان آخر... وهو بهذا المعنى في كل القرآن، وإنما يختلف المراد به بحسب السياق).(١)

المصاحبة بين السَّبيل والإفساد:

لعل المصاحبة بين بين هذين اللفظين تفيد ضرورة الابتعادِ عن المفسدين، واجتنابِهِم، فكأنّ لهؤلاء طريقًا خاصًّا بهم، يسلكونه وحدهم، وقد اعتادوا سلوكه، فمن سلكه كان منهم؛ لذا كان النهيُ عن اتباع هذا السبيل، ووجوبُ اجتنابه، (واتّباعُ سبيل المُفْسدين يَشْمل مشاركتَهم في أعمالِهِم، ومساعدتَهم عليها، ومعاشرتَهم والإقامةَ معهم في حال اقْتِرافِها، ولوْ بعد العجْز عن إرجاعهم عنها).(٢)

فسيدنا موسى – عليه السلام – يطلب من أخيه هارون – عليه السلام – أنْ لا يُكَلِّف نفسَه غير ما طُبعتْ عليه، بأنْ يتبع سبيل المفسدين استصلاحًا لهم، وخوفًا من تنفيرهم(٣)، فالواجب اجتنابُ مسايرة المفسدين، وقطعُ الطّريق عليهم، وعدمُ تمكينهم من الإفساد.(٤)

وذهب أبو حيان إلى أنّ هذا النهي (دليل على وجود المفسدين؛ ولذلك نهاه عن اتباع سبيلهم).(٥)

---

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل ٢/٩٥٢، ٩٥٣ (سبل).
(٢) تفسير المنار ٩/١٠٦، ١٠٧.
(٣) ينظر: نظم الدرر ٨/٧٦.
(٤) ينظر: زهرة التفاسير ٦/٢٩٤٤.
(٥) البحر المحيط ٤/٣٧٩.

المطلب الخامس عشر: عَمَلُ المُفْسِدِين

قال تعالى: (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) [يونس: ٨١].

العَمَلُ في اللغة:

العَمَلُ: المِهْنة، والفِعْل(١)، أو الصّنْعة(٢)، وفرّق بعضهم بين العَمَل والفِعْل على أساس القَصْد، فإن كان ثَمَّ قَصْدٌ فهو: عَمَلُ، وإلا فهو: فِعْلٌ(٣).

وذهب ابن فارس إلى أنّ تركيب (ع م ل): (عامٌّ في كلّ فِعْلٍ يُفْعَل)، وذهب الدكتور جبل إلى أنّ معناه المحوريّ هو: (جُهْدٌ ماديّ من حَيٍّ أو جمادٍ يؤدّي إلى إحداث شيءٍ أو هيأة أو نقلة).(٤)

المصاحبة بين العمل والإفساد:

خُتمت الآيةُ التي معنا بقاعدة عامّة، وهي قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)، فمن سنن الله في كونه أنه سبحانه لا يَنْفع بعمل العريقين في الفساد ولا يُدِيمه.(٥)

وذهب القرطبي إلى أنّ المراد بعمل المفسدين: السّحر(٦)، وهو معنى صحيحٌ مستنبط من السياق، لكن ذهب آخرون إلى أنّ المراد عمومُ عَمَل المفسدين، فالله لا يُصْلح عَمَلَ من سَعَى في أرضه بما يَكْرهه، وعَمِلَ فيها بمعاصيه(٧)، ولعل هذا هو الأقرب للصواب، أي أنّ المراد: (عَمَلُ جنسِ

(١) المحكم ١٧٨/٢، تاج العروس ٥٥/٣٠ (ع م ل).
(٢) المصباح ص٤٣٠ (ع م ل).
(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن ص٤٥١، تاج العروس ٥٦/٣٠ (ع م ل)، الفروق، للشيخ إسماعيل الحقي ص١٤٨.
(٤) المعجم الاشتقاقي المؤصل ١٥٢٦/٣ (عمل).
(٥) ينظر: نظم الدرر ١٧٥/٩.
(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٦٨/٨.
(٧) ينظر: جامع البيان ١٦٢/١٥.

المفسدين على الإطلاق، فيدخل فيه السّحرُ دخولاً أوّليًّا)([1])، ويذهب الشيخ رشيد رضا إلى أن القول الكريم (قاعدةٌ عامّةٌ مُبَيِّنَةٌ لِسُنَّة الله في تَنَازُع الحقّ والباطل، والصّلاحِ والفساد، ويَدْخل فيها سِحْرُهُمْ؛ فإنّه باطلٌ وفسادٌ).([2])

وإضافة العمل إلى المفسدين إشارة إلى أنّه (عَمَلٌ فاسدٌ؛ لأنه فِعْلُ مَنْ شأنُهم الإفسادُ، فيكون نَسْجًا على مِنْوالهم، وسيرة على مُعْتادهم).([3])

وأجاز بعض المفسرين أنْ يُراد بالمفسدين: المخاطبون، وأصل الكلام: إنّ الله لا يُصلح عملكم، فوقع الاسم الظاهر موقع ضمير المخاطب؛ لإبرازهم في هذه الصفة الذميمة شهادةً عليهم بها، وتسجيلاً عليهم بالإفساد، وإشعارًا بعلّة الحُكْم.([4])، فكأنّ سيدنا موسى – عليه السلام – يقول لهؤلاء: إنكم مفسدون؛ لذا فلا صلاح لعملكم؛ لأنه سيكون فاسدًا مثلكم.

(١) إرشاد العقل السليم ١٧٠/٤، وينظر: روح المعاني ١٦٧/١١.
(٢) تفسير المنار ٣٨٢/١١.
(٣) التحرير والتنوير ٢٥٦/١١/٦.
(٤) ينظر: اللباب ٣٨٩/١٠، إرشاد العقل السليم ١٧٠/٤، روح المعاني ١٦٧/١١.

المطلب السادس عشر: المصاحبة بين الإفساد والإصلاح

قوبل الإفساد بالإصلاح في سبعة مواضع في القرآن الكريم(١)، ولعل ذلك من باب: وبضدها تتميز الأشياء، والضد يظهر حسنه الضد.

ولعل في استعمال القرآن الكريم لعلاقة الضدية بين الإفساد والإصلاح تنبيهًا على قُبْح الإفساد في الأرض، وأنّ هؤلاء المفسدين يَعْمَدون إلى الأشياء الصالحة فَيُزيلون عنها صلاحها، فَيَنْتفي الانتفاعُ بها، حيث تخرج الأشياء عن حالتها اللائقة بها من الاعتدال والاستقامة، وفي ذلك إظهار لمدى ما يحدثه المفسدون في الأرض من خرابٍ للعمران، وإهلاكٍ للحرث والنسل، وإثارةٍ للفتن بين الناس، وهَيْجٍ للحروب، وتطفيفٍ في الكيل والميزان، وتقطيعٍ للأرحام، وإشاعةٍ للفوضى، ونَشْرٍ للظلم وغير ذلك من مظاهر الفساد الذي يُشيعونه في الأرض وينشرونه فيها؛ لذا نجد القول الفصل في شأن المنافقين حين زعموا أنهم مصلحون، إذ يقول تبارك وتعالى: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) [البقرة: ١٢]، وفي معرض الحديث عن كيفية التعامل مع اليتامى يقول عزّ وجلّ: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ) [البقرة: ٢٢٠]، (أي الذي الفسادُ صفةٌ له مِنَ المُصْلِح)(٢).

---

(١) هي: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) [البقرة: ١١، ١٢]، (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة: ٢٢٠]، (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف: ٥٦]، (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [الأعراف: ٨٥]، (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) [يونس: ٨١]، (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) [الشعراء: ١٥٢]، (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) [النمل: ٤٨].

(٢) نظم الدرر ٢٦٧/٣.

ويَنْهانا رَبُّنا – عزّ وجلّ– عن الإفساد في الأرض فيقول: (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) [الأعراف: ٥٦، ٨٥]، يقول أبو حيان: (هذا نَهْيٌ عن إيقاع الفساد في الأرض وإدخالِ ماهيته في الوجود، فيتعلق بجميع أنواعه: من إفساد النفوس، والأنساب، والأموال، والعقول، والأديان، ومعنى " بَعْدَ إِصْلاحِهَا ": بعد أنْ أصلح اللهُ خَلْقَها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المُكَلَّفين).(١)

ويوضّح الشيخ رشيد رضا علّة المصاحبة بين الإفساد والإصلاح – هنا – بأنّ الإفساد مذمومٌ ومَنْهي عنه في كلّ حال، لكنّ الإفساد بعد الإصلاح أظْهرُ قُبْحًا من الإفساد على الإفساد، إذْ وجود الإصلاح أكبرُ حجةً على المفسد إذا هو لم يحفظه ويجري على سَنَنه، فكيف إذا هو أفسدَ وأخرجه عن وضعه؟ ولذا خصّه بالذّكر.(٢)

أما الإمام محمد أبو زهرة فيقول: (وقوله: (بَعْدَ إِصْلاحِهَا): تقرير لواقع الأمور؛ لأن الفساد لا يكون إلا تقويضًا لصالح).(٣)

وفي قول سيدنا صالح لقومه: (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ . الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) [الشعراء: ١٥١، ١٥٢] عُطفتْ جملة (وَلَا يُصْلِحُونَ) على جملة (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) وفي ذلك دلالةٌ على خلوصِ إفسادِهم عن مخالطةِ الإصلاحِ(٤)، وتأكيدٌ لوقوع الإفساد بنفي ضده.(٥)

والمعنى نفسه في قوله تعالى: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) [النمل: ٤٨].

---

(١) البحر المحيط ٣١٣/٤.

(٢) تفسير المنار ٤١٠/٨.

(٣) زهرة التفاسير ٢٨٦٩/٦.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٣٤/٧، أنوار التنزيل ١٦٣/٢، اللباب ٦٥/١٥، نظم الدرر ٧٦/١٤، إرشاد العقل السليم ٢٥٩/٦، التحرير والتنوير ١٧٦/١٩/٩.

(٥) التحرير والتنوير ١٧٦/١٩/٩.

المطلب السابع عشر: عاقبة المفسدين

وردت المصاحبة بين لفظ (عاقبة) ولفظ (المفسدين) في ثلاث مواضع من القرآن الكريم.(١)

المعنى اللغوي للفظ (عاقبة):

العَقِبُ: مُؤخَّرُ القَدَمِ، وعَقِبُ الأمرِ: آخِرَه، وعاقِبَةُ كلِّ شَيءٍ: آخرُه(٢)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " أنا العاقب " يعني آخر الأنبياء، وكلُّ من خَلَفَ بعد شيء فهو عاقِبُه.(٣)

ومن أسماء النبي – صلى الله عليه وسلم–: العَاقِبُ، أي: آخرُ الأنْبِياء.(٤)

وذهب ابن فارس إلى أنّ (العين والقاف والباء أصلانِ صحيحان: أحدُهما يدلُّ على تأخير شيء وإتيانِه بعد غيره، والأصل الآخَر يدلُّ على ارتفاعٍ وشدّة وصُعوبة).(٥)

---

(١) وهي قوله تعالى: (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) [الأعراف: ٨٦]، وقوله تعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) [الأعراف: ١٠٣]، وقوله تعالى: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) [النمل: ١٤].

(٢) ينظر: العين ١٧٨/١، ١٧٩، تهذيب اللغة ٢٧١/١، المحيط في اللغة ١٩٧/١، ١٩٨، الصحاح ١٨٤/١، المحكم ٢٣٧/١، ٢٣٨، اللسان ٣٠٢٢/٤(ع ق ب).

(٣) ينظر: الصحاح ١٨٤/١، المحكم ٢٣٩/١، اللسان ٣٠٢٤/٤ (ع ق ب)، والحديث رواه البخاري عن مُحَمَّد بْن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قالَ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (لِي خمسة أَسْمَاء: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ). الجامع الصحيح ٥١٢/٢، ٥١٣ (برقم: ٣٥٣٢) كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٤) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٦٨/٣ (ع ق ب).

(٥) مقاييس اللغة ٧٧/٤ (ع ق ب).

وذهب الدكتور جبل إلى أن المعنى المحوري للجذر (عقب): لحاقُ غليظٍ بآخر الشيء أو خَلْفِه يَنْغمس فيه فيمتدّ معه، كعَقِب القدم، وعَقِبُ كُلّ شيء وعُقْبُهُ وعاقبته: آخره اللازق به من خلفه، وأصل العاقبة: كُلّ ما يأتي في عَقِبِ الشيء، أي: آخره، فهي ما يئول إليه أمر الشيء، وتكون حسب حال الشيء من خير أو شَرّ.([1])

المصاحبة بين العاقبة والإفساد:

إذا كان المعنى اللغوي للعاقبة: آخر الشيء وما يئول إليه أمره فإنّ المصاحبة بين اللفظين (العاقبة والإفساد) تفيد أنّ المفسدين في الأرض لن يُتركوا سدًى، فَسُوءُ المآلِ في انتظارهم في الدنيا والآخرة، فلا يَغُرَّنَّهُمْ إمهالُ الله لهم، وفي هذا من التهديد والوعيد ما فيه، لذا نجد قول الله – عزّ وجلّ – على لسان سيدنا شعيب – عليه السلام – مخاطبًا قومه: (وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) [الأعراف: ٨٦]، أي: آخر أمر المفسدين في عموم الإهلاك بأنواع العذاب، ليحذروا من أن يصيبهم مثل ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم، كقوم نوح ، وهود، وصالح، ولوط([2])، فآخر أمر المفسدين هو الخزي والنكال.([3])، وبسبب إفساد الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله كان الوعيد الإلهي بزيادة العذاب الواقع عليهم، يقول ربنا تبارك وتعالى: (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) [النحل: ٨٨].

(١) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل ١٤٩٦/٣، ١٤٩٧ (عقب).
(٢) نظم الدرر ٤٦٣/٧، وينظر: روح المعاني ١٧٩/٨.
(٣) ينظر: التفسير الكبير ٣١٥/٥، البحر المحيط ٣٤٢/٤.

المطلب الثامن عشر: النَّهْي عن الفساد في الأرض

قال تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) [هود: ١١٦].

النَّهْي في اللغة:

النَّهْيُ: طَلَبُ الكَفّ عن الشيء والامتناعِ من فعله، قال الخليل وغيره: (النّهي: خلافُ الأَمْر)(١)، وقال الجوهري: (ونَهَيْتُهُ عن كذا فانْتَهى عنه وتَنَاهَى، أي: كَفَّ، وتَناهَوْا عن المنكر، أي: نَهَى بعضُهُم بعضًا).(٢)

وذهب ابن فارس إلى أن النون والهاء والياء أصلٌ صحيح يدلُّ على غايةٍ وبلوغ، ومنه قولهم: نهيتُه عن كذا؛ لأنه إذا انتهى فتلك غايةُ ما كان وآخِره.(٣)

وذكر الدكتور جبل أنّ المعنى المحوري لتركيب (نهي): تَحَبُّسُ الشيء الرّقيق في مكانه، وتَوَقُّفُه فيه لا يتخطّاه، ومنه: النَّهي: ضد الأمر، فهو من التَّحَبُّس والتَّوَقُّف عند حَدٍّ في الأصل، فالنَّهْي: طَلَبُ كَفٍّ عن بدْء أمْرٍ أوْ عن استمراره.(٤)

المصاحبة بين النَّهْي والفساد:

لمَّا كان الإفسادُ في الأرض فِعْلاً قبيحًا، وعملاً مُسْتنكرًا، وعَمَلُ المفسدين لا يُصْلحه الله – تبارك وتعالى – وكانت عاقبته وخيمةً، لزم النَّهْيُ عنه، أي: طَلَبُ الكَفّ عن فِعْلِه من أوّل الأمر، أو الاستمرار فيه حال التَّلَبُّس به، والثناءُ

(١) العين ٩٣/٤ (ن هـ ي)، وينظر: المحيط في اللغة ٦٨/٤، الصحاح ٢٥١٧/٦، المحكم ٣٨٤/٤، اللسان ٤٥٦٤/٦، تاج العروس ١٤٨/٤٠ (ن هـ ي).

(٢) الصحاح ٢٥١٧/٦، وينظر: المحكم ٣٨٤/٤، اللسان ٤٥٦٤/٦، تاج العروس ١٥٦/٤٠ (ن هـ ي).

(٣) ينظر: مقاييس اللغة ٣٥٩/٥ (ن هـ ي).

(٤) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل ٢٢٧٠/٤ (نهي).

على مَنْ يقومون بهذا النَّهْي، وبيانُ أنهم ناجون من سوء عاقبة المفسدين، فالمصاحبةُ تفيد – هنا – أنّ النَّهْيَ عن الفساد في الأرض سَبَبٌ للنجاة من عذاب الله تعالى، ومعنى الآية: فَهَلَّا وُجِدَ مِنْ أولئك الأقوامِ الذين أهْلكناهم بظلمهم وفسادهم في الأرض، جماعةٌ أصحابُ بَقِيَّةٍ منَ النَّهْيِ والرَّأْيِ والصَّلاحِ يَنْهَوْنَهم عن الفساد في الأرض، فَيَحُولُ نَهْيُهُم إيّاهم دون هلاكهم، فإنّ مِنْ سُنَّتنا ألَّا نُهْلكَ قومًا إلَّا إذا عَمَّ الفسادُ والظّلْمُ أكثرَهم.(١)

(١) ينظر: تفسير المنار ١٥٨/١٢.

الخاتمة

بعد هذه الجولة المباركة مع القرآن الكريم يمكننا استنتاج ما يلي:

- بعض اللغويين شرحوا الفساد بالضّدّ، فقالوا عنه: ضدّ الصّلاح، أو نقيض الصّلاح، لكن وجدنا آخرين شرحوه بالعبارة، وكان ابنُ الجوزي (وهو أحد الذين كتبوا في الوجوه والنظائر) أكثرهم تفصيلاً.
- ذكر أصحاب كتب (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) سبعة معان وَرَدَ عليها الجذر (ف س د) في القرآن الكريم، لكن بالرجوع إلى الآيات التي مثّلوا بها للمعاني التي ذكروها نجد أنّ بعضها يحتمل معنى آخر غير ما ذكروه، والدليل على ذلك أن أبا هلال العسكري خالف في شيء من ذلك كما سبق في هذا البحث.(١)، أو أنه يحتمل المعنى العام للفساد.(٢)
- للحكيم الترمذي رأي في (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) سجله في كتابه: (تحصيل نظائر القرآن) الذي ألفه لهذا الغرض.
- للمصاحبة بين كلمتين أثر في بيان المعنى ووضوحه ودقته.
- وردت مشتقات الجذر (ف س د) في القرآن الكريم في خمسين موضعًا، ارتبط الفساد – في جميع هذه المواضع على وجه العموم– بالأرض، وارتباط الفساد بالأرض – في القرآن الكريم – تابع لمحل وجود الإنسان في هذا الكون الفسيح، ولعله لبيان تفظيع فساد المفسدين.
- ارتبط الإفساد في الأرض بالإنسان، لأن الأرض إنما تَصْلُح بأهلها وتَفْسُد بهم.

---

(١) تنظر: ص١٩ من هذا البحث.

(٢) تنظر: ص٢١، ٢٢ من هذا البحث.

- الإفساد في الأرض لا يختص به عملٌ معينٌ من أعمال الفساد دون غيره، كالقتل مثلاً، أو قطْع الطريق أو غير ذلك، وإنما المقصود به ما يعمُّ كلَّ عملٍ من شأنه تغيير الشيء عمّا كان عليه من الصلاح، حتى يتلف أو يهلك، ولا يُنتفع به.
- أفادت المصاحبة اللفظية أنّ الاعتداء على الزروع والثمار وأملاك المسلمين من الإفساد في الأرض، الذي يجب الابتعاد عنه، والتحرز من الوقوع فيه.
- السَّعْي في الأرض فسادًا، من عَمَلِ اليهود الدائم في هذه الحياة الدنيا، وكأنّ بينهم وبين الإفساد في الأرض مصاحبةً مستمرةً ما داموا ودامت الحياة.
- المصاحبة بين الإرادة والفساد فيها تعظيمٌ لضرر الفساد، بالتنفير من كل ما كان منه تَسَبَّبَ، وإعلامٌ بأن النفوس مَيَّالة إليه، نَزَّاعة له، فمهما رتعت قريبًا منه اقتحمتْه لا محالة.
- المصاحبة بين التولي (بمعنى: الإعراض) والإفساد تفيد بأن التولي إفسادٌ عظيمٌ.
- المصاحبة بين الإفساد والعلم من باب التهديد والوعيد.
- المصاحبة بين التولي وقطع الأرحام فيها تحذير للمَعْنِيِّين بالخطاب، فهم إن أعرضوا عن قتال أعداء الله وأعداء رسوله – صلى الله عليه وسلم – فسيعودون إلى ما كانوا عليه في الجاهلية من سفك الدماء ونهب الأموال، وليس هذا فقط بل سيقترن بذلك ويصاحبه قطع الأرحام، وفيها – أيضًا – تنبيه على منزلة صلة الرحم في الإسلام، والتنفير من قطعها.
- المصحبة بين الإفساد والسرقة تفيد بأن السرقة من الإفساد في الأرض، بل هي من أعظم أنواعه، وفي ذلك ترهيب من الوقوع فيها.

- وَرَدَ العُثُوّ في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وجاء فيها جميعًا مصاحبًا للإفساد في الأرض، وهذا يدلّ دلالة قاطعة على ارتباط العُثُوّ في الأرض بالإفساد ارتباطًا قويًّا، ومعناه: أشدّ الفساد، أو الطغيان في الإفساد، أو الإفراط فيه، أو الإسراع إلى الإفساد، لملاءمته للهوى.
- المصاحبة بين الكُفْر بالنعمة والإفساد في الأرض، أفادت أن الأوّل يتبعه الثاني لا محالة، والواقع الذي حكته لنا قصتا موسى مع قومه، وصالح مع قومه يؤيد ذلك، ويؤكّده.
- المصاحبة بين الإفساد في الأرض والأمر بإيفاء الكيل والميزان وعدم بخس الناس حقوقهم، أفادت أنّ التّطفيفَ في الكيل والميزان، وبَخْسَ الناس حقوقهم من الإفساد في الأرض، الذي ينبغي على العاقل أن يجتنبه.
- المصاحبة بين الطغيان في البلاد وكثرة الفساد أفادت أنّ الفساد الذي كَثُر وقوعه في بلاد عاد وثمود وفرعون كان نتيجةَ طغيانهم، وثمرةَ تجاوزهم حدود الله – تعالى –، وقَهْرِهم العباد، وتغَلُّبِهم على البلاد، كما أفادت أن الطغيانَ يُجَرِّىء صاحبه على دحض حقوق الناس.
- الإفساد في الأرض يقع من فردٍ، كما يقع من جماعةٍ لها عقيدةٌ معينةٌ، كما يقع من قومٍ، أي: ليس مرتبطًا بالأفراد دون الجماعات، ولا بالجماعات دون الأفراد، ولا بالرجال دون النساء، ولا بالنساء دون الرجال.
- المصاحبة بين السبيل والمفسدين تفيد ضرورة الابتعادِ عن المفسدين، واجتنابِهِم، فكأنّ لهؤلاء طريقًا خاصًّا بهم، يسلكونه وحدهم، وقد اعتادوا سلوكه، فمن سلكه كان منهم.
- المصاحبة بين العمل والمفسدين أفادت بأنّه عَمَلٌ فاسدٌ؛ لأنه فِعْلُ مَنْ شأنُهم الإفسادُ.

- جاءت المصاحبة بين الإفساد والإصلاح تنبيهًا على قُبْح الإفساد في الأرض، وأنّ هؤلاء المفسدين يَعْمَدون إلى الأشياء الصالحة فَيُزيلون عنها صلاحها، فَيَنْتفي الانتفاعُ بها، حيث تخرج الأشياء عن حالتها اللائقة بها من الاعتدال والاستقامة، كما أفادت أنّ الإفساد بعد الإصلاح أظْهرُ قُبْحًا من الإفساد على الإفساد، أو أنه لا يكون إلا تقويضًا لصالح.
- أفادت المصاحبة بين العاقبة والإفساد أنّ المفسدين في الأرض لن يُتركوا سدًى، فَسُوءُ المآلِ في انتظارهم في الدنيا والآخرة، فلا يَغُرَّنَّهُمْ إمهالُ الله لهم.
- لمَّا كان الإفسادُ في الأرض فِعْلاً قبيحًا، وعملاً مُسْتنكرًا، وعَمَلُ المفسدين لا يُصْلحه الله – تبارك وتعالى – وكانت عاقبته وخيمةً، لَزِمَ النَّهْيُ عنه، إذِ النَّهْيُ عنه سببٌ للنجاة من عذاب الله تعالى.
- ورد اسم الفاعل (مُفْسد) مفردًا وجمعًا في القرآن الكريم في واحد وعشرين موضعًا، وهو اسم فاعل من الفعل الرباعي المتعدي بالهمزة: أفْسَدَ، ولم يرد في القرآن الكريم لفظ (فاسد) وهو اسم فاعل من الفعل الثلاثي اللازم (فَسَدَ)، ولعل السّرّ في ذلك يرجع إلى أن المُفْسد قد تحققت فيه صفتان، هما: فَسَادُ نَفْسِهِ، وإفْسادُ غيره، أما الفاسدُ فقد تحققت فيه صفة واحدة، وهي فَسَادُ نَفْسِهِ، ولما كانت عنايةً القرآن الكريم متوجهةً نحو إصلاح الفرد والمجتمع وَرَدَ اسْمُ الفاعل من الفعل المتعدي تحذيرًا من الصفتين: فساد النفس، وإفساد الغير، وتقبيحًا لهما معًا.

يُضاف إلى ما سبق أنّ مَنْ فَسَدَتْ نفسُه من بني آدم فإنّه لا محالة يعمل جاهدًا لإفساد غيره، فيصير مفسدًا؛ لذا كان التحذير من المفسدين وبيان سوء عاقبتهم.

- وَرَدَ الفعل المضارع: (يُفْسد، تُفْسد، نُفْسد) في أربعة عشر موضعًا في القرآن الكريم، بينما وَرَدَ الفعل الماضي (فَسَدَ) في أربعة مواضع فقط، ولعل هذا يشير إلى أنّ الإفساد في الأرض يتجدد من المفسدين، ولا يقف عند حَدّ، فيجب على المصلحين الاستمرارُ في نَهْي المفسدين عن إفسادهم دون كَلَلٍ أو مَلَلٍ.

فهرس المصادر والمراجع

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود – ط – الثانية ١٤١١هـ ١٩٩٠م – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.
- إصلاح المنطق، لابن السكيت، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون –ط– دار المعارف – مصر.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي – ط – الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
- بحر العلوم، للسمرقندي تحقيق الشيخ علي محمد معوض وآخرين – ط – الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
- البحر المحيط، لأبي حيان، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين – ط – الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
- تاج العروس، للزَّبيدي، تحقيق/ عبد الستار أحمد فراج، وآخرين – ط – ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م – الكويت.
- تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار – ط – الرابعة ١٩٩٠م – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان.
- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، الناشر: دار سحنون – تونس.
- تحصيل نظائر القرآن، للحكيم الترمذي، تحقيق وضبط/ حسني نصر زيدان – ط – الأولى ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م – مطبعة السعادة بالقاهرة.
- التصاريف، تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام، تحقيق هند شلبي – ط – مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي – عمّان – الأردن ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.
- التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم الإبياري – ط – دار الريان للتراث.

- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد بن علي رضا – ط – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق/ سامي محمد سلامة – ط – الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع.
- التفسير الكبير، للفخر الرازي – ط – الثانية ١٤١٥هـ ١٩٩٧م – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.
- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق/ عبد السلام هارون وآخرين – ط – الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- التوقيف على مهمات التعاريف، لعبد الرؤوف المناوي، تحقيق د. محمد رضوان الداية – ط – الأولى ١٤١٠هـ – الناشر: دار الفكر المعاصر – دار الفكر – بيروت، دمشق.
- جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر – ط – الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م – مؤسسة الرسالة.
- الجامع الصحيح، للبخاري، تحقيق محب الدين الخطيب وآخرين – ط – الأولى ١٤٠٣هـ – المطبعة السلفية بالقاهرة.
- جمهرة اللغة، لابن دريد، تحقيق د. رمزي منير بعلبكي – ط – الأولى ١٩٨٧م – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان.
- الدلالة والنحو، صلاح الدين صالح حسنين – ط – الأولى – توزيع مكتبة الآداب.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي – ط – الرابعة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.
- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي– ط – الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م – المكتب الإسلامي – دار ابن حزم– بيروت – لبنان.
- زهرة التفاسير، للإمام محمد أبو زهرة – ط – دار الفكر العربي.
- علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر – ط – الخامسة ١٩٩٨م – عالم الكتب – القاهرة.

- علم الدلالة، بالمر، ترجمة مجيد الماشطة – ط – الجامعة المستنصرية – بغداد ١٩٨٥م.
- العين، للخليل بن أحمد، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي– ط – الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م – مؤسسة الأعلمي – بيروت – لبنان.
- الفروق، للشيخ إسماعيل الحقي – مطبعة الشركة الصحافية العثمانية.
- الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، تحقيق محمد إبراهيم سليم – الناشر: دار العلم والثقافة بالقاهرة.
- القاموس المحيط، للفيروزابادي – الهيئة المصرية العامة للكتاب (نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ).
- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي، تحقيق د. علي دحروج – ط – الأولى ١٩٩٦م – مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – لبنان.
- اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل، تحقيق الشيخ أحمد عبد الموجود وآخرين – ط – الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
- لسان العرب، لابن منظور – ط – دار المعارف – مصر.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق الرحالة الفاروق، وآخرين – ط– الثانية ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م – مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر.
- المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي – ط – الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
- المحيط في اللغة، للصاحب بن عباد، تحقيق محمد حسن آل ياسين – ط – الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م – عالم الكتب – بيروت.
- المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية، للباحث حمادة محمد عبد الفتاح الحسيني (رسالة دكتوراه/ جامعة الأزهر ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م).

- المصباح المنير، للفيومي، تحقيق د. عبد العظيم الشناوي – ط – الثانية – دار المعارف – مصر.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرين – ط – الرابعة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م – الناشر دار طيبة.
- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن جبل – ط – الأولى ٢٠١٠م – الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي – ط – ١٣٦٤هـ – دار الكتب المصرية – القاهرة.
- المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة – ط – الرابعة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م – مكتبة الشروق الدولية.
- مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون – ط – دار الجيل – بيروت.
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لجمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي – ط – الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م – الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي – ط – دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق محمود محمد الطناحي – ط – الأولى ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م – الناشر المكتبة الإسلامية.
- وجوه القرآن، لأبي عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد النيسابوري، تحقيق فضل الرحمن عبد العليم الأفغاني – رسالة ماجستير (مخطوطة) ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م – جامعة أم القرى – مكة المكرمة.
- الوجوه والنظائر، لأبي هلال العسكري، تحقيق محمد عثمان – ط – الأولى ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م – الناشر مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة.

- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، عن هارون بن موسى، تحقيق د. حاتم صالح الضامن – ط– ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م – سلسلة خزانة دار صدام للمخطوطات – وزارة الثقافة والإعلام – دائرة الآثار والتراث.
- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق د. حاتم صالح الضامن – ط – الأولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م – مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث – دبي.
- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق محمد حسن أبو العزم الزفيتي – ط – ١٤١٦هـ ١٩٩٥م – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٦٠٧
المبحث الأول: تعريف المصاحبة اللفظية، وأهميتها، وصورها..... ٦١١
المبحث الثاني:
معنى الجذر (ف س د) عند اللغويين وعلماء الاصطلاح..... ٦١٦
المبحث الثالث:
معاني الجذر (ف س د) عند أصحاب كتب (الوجوه والنظائر)..... ٦٢٢
المبحث الرابع: مُصاحِبات الجذر (ف س د) في القرآن الكريم..... ٦٢٩
المطلب الأول: المصاحبة بين لفظتي: الفساد والأرض..... ٦٢٩
المطلب الثاني: الفساد وقتل النفس..... ٦٣٤
المطلب الثالث: الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل..... ٦٣٧
المطلب الرابع: اليهود والإفساد في الأرض..... ٦٣٨
المطلب الخامس: الإفساد والعُلُوّ في الأرض..... ٦٤٠
المطلب السادس:
الإفساد في الأرض ونقض العهد وقطع ما أمر الله به أن يوصل..... ٦٤٨
المطلب السابع: الإفساد في الأرض والتّوَلِّي والعِلْم..... ٦٥٢
المطلب الثامن: الإفساد في الأرض والتولي وتقطيع الأرحام..... ٦٥٦
المطلب التاسع: الإفساد في الأرض والسرقة..... ٦٥٩
المطلب العاشر: الإفساد في الأرض والعُثُوّ فيها..... ٦٦٢
المطلب الحادي عشر:
المصاحبة بين الإفساد في الأرض والتطفيف في الكيل والميزان..... ٦٧٥
المطلب الثاني عشر: الفساد والطغيان في البلاد..... ٦٧٦
المطلب الثالث عشر:
مصاحبة الإفساد في الأرض للأفراد والجماعات..... ٦٨١

المطلب الرابع عشر: سَبِيلُ المُفْسِدِين..... ٦٨٣
المطلب الخامس عشر: عَمَلُ المُفْسِدِين..... ٦٨٥
المطلب السادس عشر: المصاحبة بين الإفساد والإصلاح..... ٦٨٧
المطلب السابع عشر: عاقبة المفسدين..... ٦٨٩
المطلب الثامن عشر: النَّهْي عن الفساد في الأرض..... ٦٩١
الخاتمة..... ٦٩٣
فهرس المصادر والمراجع..... ٦٩٨
فهرس الموضوعات ٧٠٣